الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية لليهود في الأندلس

المبحث الأول: الأوضاع الاجتماعية لليهود في الأندلس.

المبحث الثاني: العلاقات الاجتماعية بين المسلمين واليهود في الأندلس

المبحث الأول

الأوضاع الاجتماعية لليهود في الأندلس

عاش اليهود داخل المجتمع الإسلامي في الأندلس أكثر من ثمانية قرون، فتأثروا بعادات المسلمين وتقاليدهم. لكنّ عيشهم في تجمعات أو أحياء خاصة بهم، والسماح لهم بممارسة عاداتهم وتقاليدهم وشعائرهم الدينية داخلها، مكنهم من المحافظة على كثير من العادات والتقاليد اليهودية.

والنقاط التالية تقدم وصفا ً لأوضاع اليهود الاجتماعية في الأندلس، وتبين مدى تأثرهم بالمجتمع الإسلامي.

1- اهتمام يهود الأندلس بأنسابهم:

اهتمَّ يهود الأندلس بأنسابهم وتفاخروا بها، وكانت بعض عائلاتهم تنسب نفسها إلى موسى أو داود أو هارون -عليهم السلام- ومن هذه العائلات عائلة المؤرخ اليهودي أبراهام بن داود التي تزعم أنها تنتسب إلى النبي داود عليه السلام، وتقول: إنها جاءت إلى الأندلس من القدس في زمن نبوخذنصر[(1)]. وكان الأفراد الذين ينسبون أنفسهم إلى أحد الأنبياء، يعلنون ذلك ويفاخرون به، ولذلك وجدنا جميع المصادر الإسلامية التي عرَّفت بأبي الفضل حسداي تذكر نسبه، وتبين أنه من بيت شرف اليهود[(2)].

ومما يدلُّ أيضاً على اهتمامهم بالنسب أنَّ الشاعر الأندلسي ابن خيرة عندما أراد أن ينافق إسماعيل بن نغدله، ويتقرَّب إليه في زمن هيمنة اليهود على مقاليد الحكم في غرناطة، قال شعراً نسب فيه اليهود في الأندلس إلى موسى عليه السلام، حيث قال:

ومن يكُ موسى منهمُ ثم صِنوه　　　فقل فيهم ما شئتَ لن تبلغَ العُشرا[(3)]

كما مدحه بالثناء على خاله وعمه على طريقة العرب في المدح، فقال: "فتىً كَرُمَ خالاً وعمَّاً"[(4)].

ومن الواضِحِ أنَّ اليهود تأثروا في ذلك بالعرب الذين تميَّزوا عن غيرهم من الأمم بالاهتمام الكبير بأنسابهم. ويعترف بذلك آشتور فيقول:" وبما أنَّ العربَ علَّقوا أهمية كبرى على أصل العائلة، وفاخروا بنسب أجدادهم القدماء، فإنَّ تتبع الأنساب وإظهار شرف الأجداد، صار من المسائل المهمة والأساسية ليهود الأندلس بشكلٍ عام، وللعائلات والأفراد بشكلٍ خاص"[(5)].

ومثلما فاخر يهود الأندلس بأنسابهم العائلية، وبأصولهم المقدسية، فاخروا أيضا ً بكونهم أندلسيين، واعتقدوا أنَّهم يتفوَّقون على اليهود في جميع بلدان العالم، وأنَّ قدراتهم ومواهبهم هي التي مكنتهم من إحداث النهضة اللغوية والأدبية والعلمية في الثقافة اليهودية. وقد عبَّر يهود الأندلس عن شعورهم بالتفوُّق على غيرهم من اليهود، في كثيرٍ

---

(1) HAIM BEINART, LUCENA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.11, P.550; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.309, VOL.3, P.164.

(2) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص89-90؛ الشنتريني، الذخيرة، ق3، م1، ص457؛ ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص441، ترجمة رقم: 441؛ المقري، نفح الطيب، م3، ص293-294.

(3) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص765.

(4) الشنتريني، الذخيرة، م2، ص762.

(5) THE JEWS, VOL.3, P.164.

من كتاباتهم. فقد كتب مؤرخ يهودي أندلسي عن هجرة أحد علماء اليهود من الأندلس إلى العراق، حيث تمَّ تعيينه رئيساً للمدرسة اليهودية فيها، وتحدَّث عن الانحلال الفكري الحاصل لدى يهود العراق مهد التلمود، وقارنها بالإنجازات الثقافية لليهود في الأندلس[1]. وفي قصائده كان سليمان بن جابيرول يشدِّد على ارتباطه ببلده الأندلس، وقارن منجزات علماء يهود الأندلس بمنجزات علماء يهود العراق[2]؛ ويذكر آشتور أن مفكراً يهودياً ولد ونشأ في الأندلس، ينصح ولده، فيقول: "ليكن رفاقك من إخواننا الأندلسيين فقط، لأنهم ذوي مهارات فكرية وتفهم ونقاء ذهني"[3].

2- العربية لغة يهود الأندلس:

صارت اللغة العربية لغةً ليهود الأندلس، بها يتكلَّمون ويفكرون ويكتبون[4]، وقد استخدموا العربية العامية نفسها التي يستخدمها مسلمو الأندلس، حتى داخل بيوتهم، وفي ما بينهم. كما استخدموا في بعض الأحيان اللغة العجمية التي يستخدمها نصارى الأندلس[5]، مثلما كان يفعل المسلمون أحياناً، إذ كان كثير من المسلمين يفهم هذه اللغة ويستعملها في مخاطبة هؤلاء النصارى. ومما يدل على ذلك رواية الخشني في معرض حديثه عن قاضي قرطبة سليمان بن أسود الغافقي (ت:373هـ=983م)[6]، التي يقول فيها: " فتقدَّمت امرأة إلى القاضي، فقالت له بالعجمية: يا قاضي، انظر لشقيِّتك هذه، فقال لها بالعجميَّة: لستِ أنتِ شقيِّتي، إنمَّا شقيِّتي بغلة ابن عمار التي تلوك لجامها على باب المسجد طول النهار[7].

3- الأسماء والألقاب عند يهود الأندلس:

اعتاد يهود الأندلس أن يتخذوا اسمين، واحد عبري والآخر عربي، ومما يؤكد وجود اسم عربي واسم عبري لليهودي الأندلسي قول السموءل بن يحيى، -الذي أسلم بعد أن كان يهودياً- متحدثاً عن أبيه ذو الأصل الأندلسي: "وذلك أنَّ كثيراً من متخصصيهم يكون له اسم عربي غير اسمه العبري مشتق منه، كما جعلت العرب الاسم غير الكنية "[8].

وقد تُرِكَ يهود الأندلس يتسمَّوْن بأسماء عربية، فتسمى كثير منهم بأسماء مشتركة وردت في كلٍّ من التوراة والقرآن، لكنهم تقيَّدوا بالنطق العربي للاسم، فتسموا بموسى[9]، بدل "موشي"، وإبراهيم[10]، بدل "أبراهام"، وهكذا.

---

(1) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.165.
نقلاً عن.ABRAHAM B.DA'UD. THE BOOK OF TRADITION [SEFER HA KABBALA], P.75
(2) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.165.
(3) THE JEWS, VOL.3, P.166.
(4) ينظر: تفاصيل استخدام اليهود للغة العربية في الفصل الثقافي من هذا البحث.
(5) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.159.
(6) الخشني: قضاة قرطبة، ص167.
(7) م. ن، ص167.
(8) السموءل بن يحيى، بذل المجهود في إفحام اليهود، (القاهرة، مطبعة الفجالة الجديدة، د. ت)، ص4.
(9) ابن سعيد الأندلسي، اختصار القدح المعلى، ص78، ترجمة رقم: 11.
(10) م.ن، ص73، ترجمة رقم:11؛ المقري، نفح الطيب، م3، ص527.

كما تسموا بأسماء عربية خالصة، حتى في معناها مثل "سَهْل"[1]، و"بسّام"[2]، و"يعيش"[3]، و"عبد الصمد"[4]، و"نسيم"[5].

كما أطلق الكثير من يهود الأندلس على بناتهم أسماء عربية، مثل "أميرة"[6]، وسموهنَّ أيضاً بأسماء أسبانية مثل "يالومبا" أو "سيتبورا"[7]، وأخرى عبرية مثل "قسمونة"[8].

4- ملابس اليهود في الأندلس:

ألزم يهود الأندلس بلباسٍ محدَّد، ولكن ليس طوال مُدَّةِ وجودهم في الأندلس، وإنمَّا في بعض الأوقات فقط، ونتيجة لظروف وأسبابٍ معينة.

ولم أجدْ روايات تاريخية تدلُّ على إلزام اليهودِ في الأندلس بزيٍّ خاص منذ فتحها وحتى عصر الموحدين. وفي الكتب العديدة التي كتبها باللاتينية بعض نصارى الأندلس في منتصف القرن التاسع الميلادي، وبالغوا فيها بتصوير أوضاعهم، ووصفوها بأنَّها سيئة لم يذكروا أبدا ً أنَّهم ألزموا بزيٍّ خاص أو علاماتٍ معينة توضع على ملابسهم[9]. وهذا يعني أنَّ أهل الذمة عموما ً لم يُلزموا بذلك خلال تلك المدة. ويفهم من رواية للمراكشي أن يهود الأندلس لم يلزموا بزي خاص قبل عصر الموحدين حيث يقول: "وفي آخر أيام أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم"[10].

وعندما وُجِّه سؤالٌ إلى الفقيه الأندلسي أبي بكر بن العربي من بعض أصدقائه في مدينة طنجة، وذلك أثناء وجوده في سبته[11]، وطلب منه السائلون أن يفتيهم "في رجل يهودي، وهو الحكيم ابن قبنال، يُعَمَّمُ ويتختَّم ويركب السروج على فاره الدواب، ويقعد في حانوته من غير غيار ولا زنار، ويمشي كذلك في الأسواق بغير غيار يعرف به، بل بأفضل زيِّ كبار المسلمين وأحسنه"[12]. وأن يجيبهم مستشهداً بأمثلة تاريخية "وهل كانوا على مثل هذا الحال في زمن الصحابة والتابعين ومددِ ملوك المسلمين؟ أو هل مُنعوا من مثل هذا الزي وألزموا ما يعرفون به من المسلمين؟"[13]، لم يضرب لهم هذا الفقيه الأندلسي أمثلة من الأندلس، ليدلل على قيام الحكام بمنع اليهود والنصارى من التشبه بزي المسلمين وإلزامهم زياً خاصاً، بل نجده يستشهد بأمثلةٍ من بغداد، حيث يصف الزي الذي ألزموا به فيها[14]. ثم يقول:

---

[1] ابن سعيد الأندلسي، اختصار القدح المعلى، ص73، ترجمة رقم:11؛ المقري، نفح الطيب، م2، ص307.
[2] المقري، نفح الطيب، م3، ص529.
[3] أرسلان، الحلل السندسية، جـ1، ص371.
[4] ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص288؛ ترجمة رقم: 206.
[5] المقري، نفح الطيب، م3، ص522.
[6] ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.146.
[7] IBID, VOL.3, P.146
[8] المقري، نفح الطيب، م3، ص530.
[9] ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.71
[10] عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص304-305.
[11] الونشريسي، المعيار، جـ2، ص254.
[12] الونشريسي، المعيار، جـ2، ص254.
[13] م.ن، جـ2، ص254.
[14] م.ن، جـ2، ص255-256.

"وقد رأيتُ ذلك كله، وشاهدته بدار الإسلام، وحضرة الخلافة ببغداد حرسها الله"[(1)]، ثم يصف حادثة وقعت فيها مع ثلاثة إخوة من اليهود تتعلق بهذا الموضوع[(2)].

ويختم إجابته بالقول: "هذه صفة غيار أهل الذمة بحضرةِ الخلافة دار الإسلام حرسها الله، قائم فيها الحق بالسُّنة أبداً، فخذها مجَّاناً ممن شاهده وعاينه وتحققه وسكن الحضرة العالية"[(3)].

وفي اعتقادي أنّ أبا بكر بن العربي الذي عاش في الأندلس في عصر المرابطين لا يملك أمثلة حول هذا الموضوع من الأندلس، ولو أنَّ حكام الأندلس منذ فتحها وحتى عصره ألزموا أهل الذمة بلباس خاص، لاشتهر ذلك، وعرف وصف هذا اللباس، ولما اضطُّر ابن العربي أن يستشهد للسائلِ المغربي بأمثلة من المشرق البعيد، ولاكتفى بأمثلة من بلده الأندلس.

كما تدلُّ مطالبات بعض فقهاء الأندلس، المهتمين بشؤون الحسبة، بإلزام اليهود والنصارى بزيٍ خاص، أو بالغيار كما عُرِف في كتب الفقهاء، على عدم التزامهم أو إلزامهم به من قبل الحكام. وقد ظهرت هذه المطالبات في عصر الطوائف بعد أن كثرت تجاوزات اليهود.

ويبدو أنَّ الفقهاء رغبوا في إلزام اليهود بهذا الأمر الذي يُعَدُّ في حكم المستحب، وليس الواجب[(4)]، لوضع حدٍّ لتكبرهم وتجاوزاتهم على الإسلام والمسلمين. وأسوة بما يجري العمل به في الشمال الأفريقي وبلاد المشرق. ومن هذه الفتاوى قول ابن عبدون: "يجب أن لا يُترك أحدٌ من المتقبلين، ولا من الشُّرَطِ، ولا من اليهودِ، ولا من النصارى، بزيِّ كبار الناس، ولا بزيِّ فقيه، ولا بزيِّ رجلٍ خيرّ ... يجب أن تكون لهم علامة يُعرَفون بها على سبيل الخزي لهم"[(5)].

وقول الجرسيقي: "ويُمنع أهل الذمة من الإشرافِ على المسلمين في منازلهم، والتكشيف عليهم ومن إظهار الخمر والخنزير في أسواق المسلمين، ومن ركوب الخيل بالسروج، والزيّ بما هو من زيِّ المسلمين، أو بما هو من أبَّهةٍ، وينصب عليهم علماً يمتازون به من المسلمين، كالشكلة[(*)] في حقِّ الرجال، والجلجل في حقِّ النساء"[(6)].

والظاهر أنَّ الفقهاء كانوا يطمحون إلى إلزام أهل الذمة في الأنـدلس بما يلزم به أمثالهم في بغداد عاصمة دار الخلافة في ذلك الوقت، وما وصفوه في فتاواهم من أزياء خاصة بالرجال وأخرى بالنساء، لا يدلُّ في رأيي على أنه كان زيّاً خاصاً بهم، وأن الفقهاء يطالبون بإعادتهم إليه، وإنما هم يطالبون بما شاهدوه[(7)]، أو سمعوا عنه في بلدان

---

(1) م.ن، جـ2، ص256.

(2) م.ن، جـ2، ص256-257.

(3) م.ن، جـ2، ص257.

(4) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص229.

(5) رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، ص51.

(*) الشكلة: ذكرها فانيان فقال: "الشكلة علامة مميزة فرضت على اليهود" دون تفاصيل أخرى أو تقديم وصف لها. فانيان، تكميلات القواميس العربية، (بيروت، مكتبة لبنان، د. ت)، ص91.
أما هوبكنز فقد قال عنها: "وكانت الشكلة عبارة عن قمص طولها ذراع في عرض ذراع، وبرانس وقلانس زرق"، ينظر: هوبكنز، ج.ف.ب، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة: أمين توفيق، (ليبيا، تونس، الدار العربية للكتابة، 1980م)، ص123-124. وهذا يعني أنّ الشكلة عنده هي زيٌّ خاص، وليست علامة مميزة.

(6) الجرسيقي، رسالة عمر بن عثمان بن العباس الجرسيقي في الحسبة، حققها ونشرها: إ. ليفي بروفنسال مع رسائل أخرى تحت عنوان: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، (القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1955م)، ص122.

(7) ينظر: الونشريسي، المعيار المعرب، جـ2، ص256-257، يقارن مع ابن بسام المحتسب، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص207، ومع: الجرسيقي، رسالة عمر بن عثمان بن العباس الجرسيقي في الحسبة، ص122.

أخرى، أو قرأوه في كتب أحكام أهل الذمة، التي تصل إليهم من تلك البلدان، وقد أشار الونشريسي إلى دراسة عدد من فقهاء الأندلس في أواخر القرن الخامس الهجري كتاباً بعنوان: "الفصول الجامعة في ما يجب على أهل الذمَّة من أحكام المِلَّة" على يد فقيه طنجي رواه عن مؤلفه البغدادي، عندما كان هناك[1].

ولدينا إشاراتٌ من عصر الطوائف، يُفهم منها عدم وجودِ زيٍّ خاص باليهود. حيث يقول أبو إسحاق الإلبيري في قصيدته التي صوَّر فيها أحوال يهود غرناطة في عصر الطوائف:

وإني احتللتُ بغرناطة فكنتُ أراهم بها عابثين...

وهم يلبسون رفيعَ الكِسا وأنتم لأوضاعها لابسون[2]

ويؤكد حسين مؤنس أن اليهود في عهد بني أمية في الأندلس كانوا يلبسون ملابس العرب[3].

لقد تسامحت السلطات الإسلامية في الأندلس مع اليهود والنصارى وتغاضت عن إلزامهم بزيٍّ خاص في وقتٍ كان أمثالهم في بلدان المسلمين يُلزمون به، وبشكلٍ حازمٍ في بعض الأحيان[4]. وكان هذا الزيُّ سائداً في كثير من الأوقات حتى في بلاد المغرب المجاورِة للأندلس، ففي عهد الأغالبة أمر القاضي عبد الله بن أحمد بن طالب أثناء ولايته الثانية من (267-275هـ=880-888م)، بأن يضع اليهود على أكتافهم رقاعا ً بيضاء في كلِّ رقعة منها قردا ً وخنزيرا ً[5]. ويروي المجيديلي أنه "كتب عبد الله بن أحمد بن طالب إلى بعض قضاته في اليهودِ والنصارى، أن تكون الزنانير عريضة صغيرة مخالفة للون وجوه ثيابهم ليعرفوا بها، فمن وجدته تركها بعد نهيك فاضربه عشرين سوطا ً مجرَّدا ً، ثمَّ صيّره في الحبس، فإن عاد فاضربه ضربا ً وجيعا ً بليغا ً وأطل حبسه"[6]، وقد ذكر هذه الرواية أيضا ً الونشريسي[7]. ولم يكن فقهاء القيروان يتساهلون في مسألة اللباس حتى مع اليهودِ المقرَّبين من الحكام.

إذ يروى أن المعز بن باديس بعث طبيبه ابن عطاء اليهودي لمقابلة أبي عمران موسى "فلما دخل على الشيخ في داره ظنه الشيخ بعض رجال الدولة إلى أن قال بعض الحاضرين: أكرمك الله إنه من خيارِ أهل مِلَّته، فقال الشيخ: وما مِلَّته؟ فقال: هذا ابن عطاء اليهودي، فغضب أبو عمران ... وأمره بالخروج وهو يرعد، وكان غير معلَّم، فأمر الشيخ بصبغِ طرف عمامته لشهرتهِ"[8].

وفي عصر الموحدين فرض على يهود الأندلس زيٌّ خاص في أواخر عهد الخليفة أبي يوسف يعقوب يحدِّثنا عنه عبد الواحد المراكشي فيقول: "أمر أن يُميَّز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك ثيابٌ كحيلة،

---

(1) المعيار المعرب، جـ2، ص258.
(2) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص232.
(3) فجر الأندلس، ص523.
نقلاً عن:
LEVE-PROVENCAL, MISTOIRE DE L'ESPAGNE MUSULMANE, (PARIS), 1951, I, P.80-81.
(4) ينظر: الونشريسي، المعيار المعرب، جـ2، ص256-257.
(5) المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس، جـ1، قام على نشره: حسين مؤنس، (القاهرة، ط1، 1951م)، ص381. عباس أبو الفضل، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: أحمد بكير محمود، (بيروت، منشورات دار الحياة، ليبيا، دار الفكر، 1968م)،جـ2، ص205.
(6) المجيديلي، كتاب التيسير في أحكام التسعير، ص78-79.
(7) الونشريسي، المعيار المعرب، ج6، ص421.
(8) الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق: إبراهيم شبوح، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ط2، 1968م)، جـ3، ص161.

وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريبٍ من أقدامهم، وبدلاً من العمائم كلوتات على أشنع صورة، كأنها البراديع تبلغ إلى تحتِ آذانهم، فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه أبي عبد الله [الناصر]، إلى أن غيَّره أبو عبد الله المذكور، بعد أن توسَّلوا إليه بكلِّ وسيلة، واستشفعوا بكلِّ من يظنون أنَّ شفاعته تنفعهم، فأمرهم أبو عبد الله بلباس ثياب صفر وعمائم صفر، فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا -وهو سنة 621هـ[1]-، ولكن الزركشي خالف المراكشي، فذكر أنَّ المنصور أمرهم "بعمل الشكلة، وجعل قمصهم طول ذراع في عرض ذراع، وجعل لهم برانس، وقلانس زرق"[2].

وأرى أن قول المراكشي هو الأصح، والدليل على ذلك أن ملابسهم كانت في سلطنة غرناطة ذات لون أصفر، ويبدو أن ذلك اللون كان في عهد الموحدين وبقي سائداً في سلطنة غرناطة بعد سقوط دولة الموحدين.

أما عن ملابس اليهود في مملكة غرناطة في عهدِ بني الأحمر، فيحدِّثنا عنها ابن الخطيب في معرض وصفه لسياسة السلطان نصر أحد ملوك بني نصر (708-713هـ=1308-1313م) بقوله: "وأخذ يهود الذِّمَّةِ بالتزامِ سمةٍ تشهرهم، وشارة تميزهم، ليوفوا حقهم من المعاملة التي أَمَرَ بها الشارع في الطرق والخطاب"[3]. كما يصف ابن الخطيب ملابس اليهود في عهد السلطان إسماعيل بن فرج (713-725هـ=1313-1324م) الذي خلف السلطان نصر، فيقول: "وأخذ يهود الذمَّة بالتزامِ سمة تشهرهم، وشارة تميزهم، وليوفى حقهم من المعاملة التي أَمَرَ بها الشارع في الخطاب والطرق، وهي شواشي صفر"[4].

ويصف المقري ملابسهم في عهد بني نصر ويبين أنهم كانوا يعتمرون "قلنسوة صفراء، إذ لا سبيل ليهودي أن يتعَمَّمَ البتة"[5]. ويروي ابن الخطيب حادثة طريفة حدثت في مملكة غرناطة النصرية حول هذا الموضوع، وفي ما يبدو في عهد سلطانها إسماعيل بن فرج، حيث يقول: "ولقد حدَّثَ من يخفُّ حديثه، من الشيوخ أولي المجانة والدعابة، قال: كنا عاكفين على راحٍ، وبرأسي شاشية ملفٍ حمراء، فحاول أصحابي إنامتي، حتى أمكن ذلك، وبادروا إلى رقاعٍ من ثوبٍ أصفر، فصنعوا منها شاشية ووضعوها في رأسي مكان شاشيتي، وأيقظوني فقمت لشأني، وقد هيأوا ثمناً لشراء بقل وفاكهة وجهزوني لشرائه، فخرجتُ حتى أتيتُ دكان السوق فساومته، فلما نظر إليَّ قال لصاحبه: جزا الله هذا السلطان خيراً، والله لقد كنتُ أبادِرُ هذا اللعين بالسلام عند لقائه أظنُّهُ مسلماً، وبصق عليَّ فهممتُ أن أوقع به، ثم فطنتُ للحيلةِ، فانتزعتها، وبادرتُ فأوسعتهم ذمَّاً، وعظم خجلي، وسبقني إليهم عين لهم عليَّ، فكان الضحك يهلكهم عند دخولي"[6].

---

[1] عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص304-305.
[2] الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدين والحفصية، تحقيق وتعليق: محمد ماضورة، (تونس، ط2، 1966م)، ص16.
[3] اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ص71.
[4] الإحاطة في أخبار غرناطة، م1، ص396.
[5] نفح الطيب، م1، ص223.
[6] الإحاطة في أخبار غرناطة، م1، ص396.

وهناك مجموعة من التساؤلات يمكن أن تُثار حول موضوع اللباس المحدد الذي فرض على أهل الذمَّة في دار الإسلام. ومن هذه التساؤلات: ما حكم فرض لباس معين على أهل الذمَّة؟، وهل قام هذا التشريع على أساس نصوص من الكتاب والسنة؟ وما الهدف أو المصلحة التي جعلت المسلمين يطبقونه عليهم في بعض العصور؟.

وللإجابة على هذه التساؤلات نستشهد بقول الماوردي الخبير في السياسة الشرعية: "وأمّا المستحبُّ فستةُ أشياء: تغييرُ هيئاتهم بلبس الغيار، وشدّ الزِّنَّار..."[1]، وبقول ابن القيم: "وأمّا الغيارُ فلم يُلزموا به في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وإنَّما اتُّبع فيه أمر عمر رضي الله عنه"[2].

ويدلُّ القولان السابقان على عدم وجود نصٍ في الكتابِ أو السنة يقضي بفرض زيٍّ على أهل الذمَّة، وأنَّ حكمه في الشريعةِ يُعدُّ مستحبَّاً وليس واجباً، ومن المعروف أنّ المستحب هو ما يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه[3].

أما عن الأسباب التي جعلت المسلمين في بعض العصور يحرصون على إلزام غير المسلمين بزي خاص، فيمكن حصرها بما يأتي:-

أ- لكي يُعرف المسلم من غيرِ المسلم، فيحصلُ كلٌّ على حقه، ويطالب بما عليه من واجبات، إذ أنَّ الشريعة الإسلامية التي كانت هي الدستور في دار الإسلام، قد جعلت للمسلم حقوقه وواجباته، ولغير المسلم حقوقه وواجباته. فكيف سيعطى الفرد حقوقه ويطالب بواجباته، إذا لم يكن هناك علامات تجعل من السَّهل التفريق بين المسلم والذمي. وبما أنَّ ملامح المسلمين وغير المسلمين وأشكالهم في دار الإسلام كانت متقاربة، وهم جميعاً يجيدون اللغة العربية، ويملكون حق التنـقل وارتياد معظم الأماكن، فكان لابدَّ من علامات فارقة في الملبس، تمكِّن ولاة الأمرِ والمحتسبين والقضاة وحتى جمهور المسلمين من التعامل معهم وفق قانون الدولة الذي هو أحكام شريعة الإسلام.

وقد لاحظنا الإشارة إلى هذا السبب في نصِّ رواية ابن الخطيب عندما قال: "وأخذ يهود الذمّة بالتزام سمة تشهرهم وشارة تميزهم، وليوفى حقهم من المعاملةِ التي أمَرَ بها الشارع في الخطاب والطرق"[4].

ب- إن فرض زيٍّ خاص على غير المسلمين مهم لأمن المسلمين، لأنه يُصَعِّبُ على جواسيس أعداء المسلمين من اليهود والنصارى، القيام بمهماتهم التجسسية، إذ يُكتشفون بسهولة بسبب زيهم، ويحذر المسلمون منهم.

جـ- ليس المسلمون وحدهم هم الذين جعلوا لغيرِ المسلمين علاماتٍ يعرفون بها. "ففي أوربا قرَّرَ المجمع المسكوني المنعقد في لاتران (LATRAN). بروما سنة (612هـ=1215م)، بأن يحمل اليهود شارة صفراء ضرورية (LA ROUELLE) بقصد التمييز بين النصارى واليهود. وقد علَّق أحد المجتمعين على هذا الإجراء بقوله: إنَّ الدواعي الكامنة وراء هذه الإجراءات في العصور الوسطى ليست عنصرية، لأنَّ المسلمين والمرضى بالجذام والمومسات يحملون شاراتٍ مميزة، وهي تهدف إمَّا لمنع الاختلاط أو التحذير من معاشرة تعدُّ مُضرَّة من الناحية الدينية"[5]. ويقول

---

[1] الماوردي، الأحكام السلطانية، ص229.
[2] أحكام أهل الذمة، ق1، ص236.
[3] أبو زهرة، محمد، أصول الفقه، (القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت)، ص39.
[4] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م1، ص396.
[5] الكواتي، اليهود في المغرب، ص125.
نقلاً عن: FRANCOIS DE FONTETTE, LE RACISME, (PARIS, 1981), P.31

جوزيف رينو: "ينصُّ قانون أصدره مجمع الأساقفة في طركونة في سنة 1239م وقرار أصدره أسقف بيزيير في سنة 1368م، على أنَّه يتحتم على المسلمين ذكوراً وإناثاً أن يلبسوا أزياء خاصة بهم تتميَّزُ عن ملابس المسيحيين [النصارى] من حيث اللون والشكل معاً، ومثلهم في ذلك مثل اليهود"[1].

وأعتقد أنَّ ما تقوم به جميع دول العالم في عصرنا هذا من عملِ هويَّاتٍ أو بطاقات خاصَّة للمقيمين فيها، وأخرى تخصُّ مواطنيها، تشبه مسألة الزي أو العلامات الفارقة التي كانت تخصص لغير المسلمين المقيمين في الدولة الإسلامية. ولو توفَّرت في تلك العصور الوسائل المتوفِّرة اليوم في عصرنا، لعمل بها، ولما لجأ المشرعون إلى مسألة الزيِّ الخاص وغيره من العلامات الأخرى.

والظاهر أنّ اليهودَ كانوا يتهرَّبون من الالتزام بالزيّ الذي يخصَّصُ لهم، لسببين الأول هو شعورهم بأنَّ في تمييزهم بزيٍّ خاص إهانة وإذلالا ً لهم[2]. ومما يدلُّ على أنَّ التمييز لا يقصد منه الإهانة والإذلال قول أبي عبد الله المازري: "كون اليهود يكلفون تغيير أطرافهم، أو اتخاذ عَلَم يتميزون به، هذا مما فُعِلَ عندنا حديثا ً وقديما ً في الأمصار الكبار"[3]، وتعليق الونشريسي على هذا القول: "وقوله في الأمصار الكبار معناه حيث يكثر اللَبس. وأما الصغار، أو حيث تكون القرية لهم فظاهر كلامه أنه لا يُحتاج إليه"[4]. وفي هذه الفتوى دليل واضحٌ على أن المقصود باللباس هو تمييزُ الأشخاصِ ومعرفتهم، إذ لم يتوجب إلاَّ في المدن الكبيرة التي من الصعب معرفة جميع سكانها، أما في قراهم أو في القرى الصغيرة، فليس بواجب لأن تمييز اليهود ومعرفتهم يكون سهلا ً.

والسبب الثاني هو ادعاؤهم بأنَّ هذا الزيّ، يُدلِّل على أنهم يهود، ويعرِّض أموالهم وحياتهم للخطر.ويردُّ على ذلك أحد فقهاء المغرب المطلعين على حقائق عصرهم، حيث يقول: وما يفعله اليهود اليوم في الأسفار من ركوب الخيل، والسروج الثمينة، ولبس فاخر اللباس، والتحلّي بحلية المسلمين في لبس الخف والمهماز، والتعَّم بالعمائم فمحظورٌ شنيع، ومنكرٌ فظيع، يُتقدَّم في إزالته بما أمكن. وربما يجعلون لذلك مُحلِّلاً، زعمهم أنهم يخافون على أنفسهم وأموالهم إنّ ظهر عليهم زيَّهم الذي يعرفون به، وهم في ذلك كذابون، لما شاهدنا من حصول الأمن القوي لهم عند العرب، والحظوة الكبيرة لما يرجون من حصولِ النفع منهم، فيرضى العربي أن يستأصل هو وجميع أهله في نجاةِ اليهودي الذي معه"[5].

5- يهود الأندلس والطعام:

يشترك يهود الأندلس مع غيرهم من اليهود في كثير من العادات الخاصة بالطعام، والتي يقولون إنها تستنِدُ إلى تعاليم دينية. ويختلفون عنهم في بعض العادات والأكلاتِ وطرق إعدادها، فهم متفقون على عدم أكلِ ذبائح المسلمين، وبعض أطعمتهم. وفي ذلك يقول السموءل بن يحيى الأندلسي الذي كان يهوديا ً وأسلم: "فما بالُ هؤلاء [اليهود] لا يأكلون من ذبائح المسلمين؟!، بل من سكن في الشام وبلاد العجم لا يأكلون من أيدي المسلمين اللبن والجبن والحلوى

---

[1] جوزيف رينو، الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا، ص235.
[2] ينظر: الونشريسي، المعيار المعرب، جـ2، ص256.
[3] م.ن، جـ2، ص259.
[4] م.ن، جـ2، ص259.
[5] م.ن، جـ2، ص248.

والخبز، وغير ذلك من المأكولات"[1]. ويقول أيضا ً في وصفه لفرقة الربانيين الذين منهم جل يهود الأندلس: "وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم من سائر اليهود، لأن أولئك الفقهاء المفترين على الله قد أوهموهم أنَّ المأكولات والمشروبات إنما تحلُّ للناس بأن يستعملوا فيها هذا العلم الذي نسبوه إلى الله وإلى موسى، وأنَّ سائر الأمم لا يعرفون هذا، وأنَّهم إنما شرفهم الله بهذا وأمثاله من الترهات التي أفسدوا بها عقولهم، وصار أحدهم ينظر إلى من ليس على ملَّتهِ كما ينظر إلى سائر الحيوانات التي لا عقل لها، وينظر إلى المآكل التي تأكلها الأمم كما ينظر الرجل إلى العذرة، أو صديد الموتى، وغير ذلك من الأشياء القذرة التي لا يسوغ لأحدٍ أكلها، فهذا هو الأصل في بقاء هذه الطائفة على أديانها، لشدة مباينتها لغيرها من الأمم، ولأنهم ينظرون إلى الناس بعين النقص والازدراء إلى أبعد غاية"[2].

وهناك لحم لا يأكلونه إذ يسمونه "طاهور" أو "طريف"، وهو لحم الذبائح التي يعتقدون أن اليهودي الذي ذبحها لم يلتزم بتعليمات الذبح المتبعة عندهم. وكان يهود الأندلس كغيرهم من اليهود يبيعون هذه الذبائح أو لحمها إلى المسلمين دون أن يخبروهم بحقيقتها. وقد أورد الونشريسي مسألة حول هذا الموضوع حيث يقول: "سئل ابن سحنون عن قومٍ يهود ذبحوا الغنم لأنفسهم، فربما خرج لهم في ذلك شيئ يسمونه طاهورا ً فيبيعون ذلك ولا يبينوه، وما علمنا أنَّ أحدا ً منهم بين لنا ذلك، فأجاب: "إذا وقع في ذبيحتهم ما لا يستحلونه، فيبيعونه للمسلمين ولا يبينونه، فيمنعون من البيع في الأسواق، ولو في موضعٍ يشتري منهم أهل الأسواق"[3].

وأورد أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف فتوى لأحد الفقهاء يقول فيها: "فإن كان ما اشتراه من اللحم منهم مما لا يأكلونه، مثل الطريف وشبهه، فيفسخ شراؤه"[4].

أما المسلمون فإنهم يستحلّون أكل ذبائح اليهود وأطعمتهم[5].لكنهم يعتقدون أنَّ "ما ذبحوا لأعيادهم وضلالهم، فتركه أفضل لأنَّ أكله من تعظيم شركهم"[6].

ويفسر السموءل بن يحيى سبب عدم أكل طعامِ اليهود غيرهم في الوقت الذي يستبيح فيه المسلمون أكل طعامهم بأن أئمتهم حرموا عليهم مؤاكلة الأجانب[7].

ويبدو أنَّ يهود الأندلس كانوا يولون الطعام اهتماما ً كبيرا ً، إذ اشتهرت في الأندلس طبخات معينة نسبت إليهم. وقد ذكر صاحب كتاب "الطبيخ في المغرب والأندلس" بعض أسماء هذه الطبخات، وقدَّم وصفا ً لها، وأسماؤها هي:-

"لون من فروج يهوديّ "[8]، "ولون يهودي محشو مدفون"[9]، و"حجلة يهودية"[10]، و"لون من حجلة يهودي"[11].

---

(1) بذل المجهود في إفحام اليهود، ص56.

(2) م.ن، ص59-60.

(3) المعيار المعرب، جـ2، ص29.

(4) في آداب الحسبة والمحتسب، حققها ونشرها مع رسائل أخرى: إ. ليفي بروفنسال تحت عنوان: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، (القاهرة، مطبعة المعهد الفرنسي بالقاهرة، 1955م)، ص94.

(5) لقوله تعالى: ﴿ ...وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ...﴾ سورة المائدة، من الآية 5.

(6) ابن عبد الرؤوف، في آداب الحسبة والمحتسب، ص95.

(7) السموءل بن يحيى، بذل المجهود في إفحام اليهود، ص55.

(8) مجهول، كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، "صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، م9، 10، (مدريد، 1961-1962م)، ص68

وقد تحدث ابن حزم عن إحدى عادات يهود الأندلس في الطعام بقوله: "إنهم يلتزمون أكل الفطير في مرور الوقت المذكور في كل عام"[1].

كما أشار آشتور إلى بعض عاداتهم في الطعام، فذكر أن هناك باعة متجولين من اليهود كانوا يطوفون في الأحياء اليهودية، ويبيعون فيها الطعام المُعدّ على وفق أذواقهم[2]، وأنّ أفراد العائلة اليهودية كانوا يأكلون فرادى، بينما يجتمعون لتناول الطعام معا ً في أيام السبت والأعياد[3]. وأنَّ من الأكلات المفضَّلة في أيام الأعياد، الفطائر المختلطة بالخل والنبيذ والتي تدعى "بواريد"، وكذلك "الهريسة" المصنوعة من الدقيق واللحم المقطع، إضافة إلى الفطير المحشو بقطع الدجاج والفطر[4].

وكان من عادة اليهود أنهم يقيمون في الأعياد الولائم الخاصة بأفراد الطائفة اليهودية في كلِّ مدينة يقطنون فيها، وأن الأغنياء هم الذين يتولَّون الإنفاق على هذه الولائم ويقيمونها في بيوتهم، ويقول آشتور: "إنه في مثل هذه المناسبات كان المضيفُ يستأجرُ طباخا ً معروفا ً بمهارته وخبرته الطويلة، وكان هذا الطباخ يقدِّم الفواكه للضيوف، ثمَّ يليها الحمام المطبوخ بالخل، وتلك وجبة شهية راقية. وتُنهى الوجبة بالحلويات، ثم يضع الخدم الفاكهة على طاولات صغيرةٍ مستديرة"[5].

6- أعياد يهود الأندلس:

لليهود أعياد عديدة ومتنوعة، منها ما يعتقدون أن التوراة جاءت بها، وأخرى محدثة، أما الأولى فخمسة أعياد، وهي: عيد رأس السنة العبرية، وعيد صوماريا، وعيد المظلة، وعيد الفطير، وعيد الأسابيع، ويسمى عيد العنصرة وعيد الخطاب[6]. وأما المحدثة فأشهرها عيدان هما: عيد الفوز[7]، وعيد الحنكة[8].

وذكر آشتور نقلا ً عن مصادر يهودية أن يهود الأندلس كانوا يحيون هذه الأعياد، ويؤدون جميع طقوسها على طريقتهم الخاصة، حيث يقيمون تلك الطقوس داخل بيوتهم، وفي معابدهم، ويصحبون أولادهم إلى المعابد، ويجتمعون على موائد الطعام داخل بيوتهم، وعلى الولائم في بعض بيوت أثريائهم[9].

---

[9] م.ن، ص74

[10] م.ن، ص67

[11] م.ن، ص70

[1] الرد على ابن النغريلة اليهودي، ورسائل أخرى، ص69.

[2] ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.122.

[3] IBID, VOL.3, P. 145.

[4] IBID, VOL.3, P. 158.

[5] IBID, VOL.3, P.160.

[6] للاطلاع على تفاصيل عن هذه الأعياد اليهودية. ينظر: النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الإرب في فنون الأدب، م1، (مصر، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر، نسخة مصورة عن دار الكتب، د.ت)، ص195-196؛ القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ2، (مصر، المؤسسة المصرية العامة، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، د.ت)، ص436-437.

[7] للاطلاع على تفاصيل عن عيد الفوز، ينظر: النويري، نهاية الإرب، م1، ص196؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ2، ص437.

[8] للاطلاع على تفاصيل عن عيد الحنكة. ينظر: النويري نهاية الإرب، م1، ص197؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ2، ص438-439.

[9] THE JEWS,VOL.3, P.148-152.

ولم أجد في المصادر الإسلامية التي اطلعت عليها ذكرا ً لاحتفال يهود الأندلس بهذه الأعياد غير ما ذكره ابن الأزرق الأندلسي[*]، عن سؤال وجه إليه "عن اليهود يصنعون رغائف في عيد لهم يسمونه عيد الفطير، ويهدونها لبعض جيرانهم من المسلمين، فهل يجوز قبولها منهم، وأكلها أم لا؟"[1]، وقد أجاب ابن الأزرق بعدم جواز قبولها منهم[2]. ولهذا العيد اسم آخر عند اليهود، وهو عيد الفصح، وهو يبدأ من اليوم الخامس عشر من شهر نيسان، ويستمر سبعة أيام يأكلون خلالها الفطير، وينظفون بيوتهم من خبز الخمير، وذلك احتفالا ً بذكرى خلاصهم من فرعون، وغرقه[3].

وحول عجينة الفطير التي يصنعها اليهود في هذا العيد، يقول حسن ظاظا: "خبز الفطير المفروض على اليهود في فصحهم قد جرت العادة أن يدخلوا في عجينته دما ً بشريا ً يأخذونه من ضحية يقتلونها من أمة أخرى غير اليهود، ويستحسن أن تكون الضحية من المسيحيين أو المسلمين"[4]. وعن نتائج هذه العادة على اليهود يقول أيضا ً: "إنها جلبت على أماكن التجمع اليهودي في الشرق والغرب مشاكل كثيرة، فقد كان الحي اليهودي الذي يسكنون فيه يهاجم، وينتشر فيه القتل والتنكيل بمجرد اختفاء طفل أو شخص من مجتمع غير يهودي مجاور في عيد الفصح... ومن ذلك ما يروى من قتل اليهود للطفل المسيحي "هيوج" من مدينة "لنكولن" بانجلترا في موسم الفصح سنة 1255م، وسجلّ هذه التهم يطول تتبعه، كالذي قيل إنه حدث في لندن سنة 1257م، وفي "بفورتسهايم" بألمانيا سنة 1261م، وفي "فورثامبتون" سنة 1279م، وفي "ميونخ" بألمانيا سنة 1258م..."[5].

ولم أجد نصا ً صريحا ً يدل على ممارسة يهود الأندلس لهذه العادة، لكنني أمام هذه الحوادث العديدة التي تدل على تأصلها عند اليهود، وممارستها في العصور الوسطى، صرت أربط بينها وبين حادثة قتل المسلم الذي وجدت جثته في الحي اليهودي بقرطبة سنة (529هـ=1135م)، والتي أدت إلى مهاجمة المسلمين لهذا الحي، والفتك باليهود، ولا سيما أن ابن عذاري الذي روى هذه الحادثة لم يشر إلى سبب قتل المسلم، حيث قال: "وثارت العامة بقرطبة في هذه السنة في رجب على اليهود لعنهم الله، بسبب قتل وجد بين أظهرهم"[6]. ويزيدنا تأكداً من صحة هذا الربط، أنّ شهر رجب في عام 529هـ يوافق شهر نيسان من عام 1135م، وهو الشهر الذي يحتفل فيه اليهود بهذا العيد[7].

7- المرأة اليهودية في الأندلس:

---

[*] أبو عبد الله بن الأزرق: ويعرف بالأندلسي، ولد سنة (831هـ=1428م)، بمالقه، وتوفي سنة (896هـ=1491م) بالقدس، تولى القضاء بغرناطة، كما تولى الإفتاء والتدريس، زار تلمسان ودخل إلى تونس، ثم توجه إلى القاهرة. من أهم آثاره "الإبريز المسبوك في كيفية أدب وسير الملوك" و"بدائع السلك في طبائع الملك". وقد قام محمد بن عبد الكريم الجزائري بتحقيق الكتاب الأخير. وصدر عن (الدار العربية للنشر، تونس، ليبيا، 1977)، ينظر: مقدمة المحقق، ص9-24.

[1] الونشريسي، المعيار المعرب، جـ11، ص111؛ ابن الأزرق، بدائع السلك، مقدمة المحقق، ص21.

[2] ينظر: نص الجواب كاملاً في: المعيار، جـ11، ص111-112.

[3] النويري، نهاية الإرب، جـ1، ص196؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ2، ص437.

[4] ظاظا، حسن، الفكر الديني اليهودي، (دمشق، دار القلم، بيروت، دار العلوم، ط2، 1407هـ-1987م)، ص185.

[5] ظاظا، حسن، الفكر الديني اليهودي، ص185.

[6] البيان المغرب، جـ4، ص93.

[7] تبين لي ذلك عند الرجوع إلى جدول مقارنة التواريخ الهجرية بالتواريخ الميلادية.
ينظر: العجيري، صالح محمد، تقويم القرون لمقابلة التواريخ الهجرية والميلادية، (الكويت، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1981م).

نظرت الشريعة اليهودية إلى المرأة نظرة احتقارٍ وصغار، فيقول الحبر اليهودي بابا بترة: "ما أسعد من رزقه الله ذكورا ً، وما أسوأ حظ من لم يرزق بغير الإناث"[1].

ولا يسمح اليهود للمرأة بالالتحاق بالمدارس الدينية، وهي في شريعتهم خفيفة عقل.

وقد جاء على لسان الحاخام أليعازر:"كل من يُعلِّم ابنته التوراة، فكأنَّما يعلمها السخافة"[2].

ومهمة المرأة تقتصر عندهم على الإنجاب وتأدية مهام البيت وتربية الأطفال.وإذا تزوجت، وكان لها خدم في بيت أبيها، وأحضرتهم معها إلى بيت زوجها، فعندئذٍ يمكن أن تُعفى من بعض الأعمال، ولكن مهما كان عدد الخدم الذين أحضرتهم معها، فإنها لا تعفى من الغزل، مثلما أكَّد الحبر أليعازر (ELIEZER)، ولزوجها أن يرغمها عليه، لأنَّ البطالة تقود إلى الفساد[3].ويَعدُّ المشرِّع اليهودي المرأة المتزوجة كالقاصر والصبي والمجنون بحيث لا يجوز لها البيع والشراء[4].

إنَّ هذا التشدُّد من الشريعة اليهودية في النظرة إلى المرأة، هو في تصَوُّري الذي جعلها تكاد تكون غائبة الذكر في المصادر التاريخية الأندلسية والمغربية. إذ لم أجد للمرأة اليهودية الأندلسية غير إشاراتٍ طفيفة، لا يمكن أن تسهم في تكوين صورةٍ واضحة عنها، ولذلك اضطررنا لبيان صورتها في الشريعة اليهودية التي استمدَّ منها يهود الأندلس نظرتهم وكثيرا ً من تصوراتهم عن المرأة وكيفية معاملتها.

ومن هذه الإشارات، إشارة المقري إلى الشاعرة قسمونة بنت إسماعيل اليهودي، التي يدلُّ تمكنها من الشعر العربي على وجود نساءٍ يهوديات في الأندلس، قد أخذن بنصيبٍ وافرٍ من التعليم، وتدلُّ المعاني التي عبرت عنها في شعرها على بعض صفات المرأة اليهودية في الأندلس. فهي محافظة، وترغب في الارتباط برجلٍ، ولكن عن طريق الزواج الشرعي، كما أنَّ زواجها لايتمُّ إلاَّ بإذن وليِّها الذي هو والدها إن كان حيًّا ً، كما أنَّها حييَّةً لا تصرِّح إلى أهلها برغبتها في الزواج، بالرغم من رغبتها فيه وحاجتها إليه.كل ذلك يفهم من أبياتٍ شعرية عربية قالتها قسمونة، نجدها في رواية المقري الذي يقول: "وكانت بالأندلس شاعرة من اليهود يقال لها قسمونة بنت إسماعيل اليهودي، وكان أبوها شاعرا ً، واعتنى بتأديبها،... ونظرت في المرآةِ فرأت جمالها، وقد بلغت أوان التزويج، ولم تتزوج، فقالت:

أرى روضة قد حان منها قطافها ... ولست أرى جانٍ يمدُّ لها يداً

فوا أسفي يمضي الشباب مضيَّعا ً ... ويبقى الذي ما إن أسمِّيه مفردا

فسمعها أبوها، فنظر في تزويجها.

وقالت في ظبيةٍ عندها:

يا ظبية ترعى بروضٍ دائما ً ... إني حكيتكِ في التَّوحش والحَوَرْ

---

[1] شلبي، مقارنة الأديان اليهودية، ص 284، كحالة، عمر رضا، الزواج، (بيروت، مؤسسة الرسالة، 1981م)، جـ1، ص33.
[2] ظفر الإسلام خان، التلمود تاريخه وتعاليمه، (بيروت، دار النفائس، ط2، 1972م)، ص58.
[3] شلبي، مقارنة الأديان اليهودية، ص285-286.
[4] م.ن، ص285.

أمسى كلانا مفرداً عن صاحبٍ فلنصطبر أبدا ً على حكم القَدَرْ[1]

والظاهر أنَّ اختلاط يهود الأندلس بالمسلمين، ورؤيتهم لمكانة المرأة وحقوقها في الشريعة الإسلامية، وفي المجتمع الإسلامي، قد أثَّر في عقلية يهود الأندلس، ودفعهم للتحرر من بعض قيود شريعتهم المهينة للمرأة، والبحث عن مخرج لهم من تلك القيود. فالشريعة اليهودية وأحبارها يمنعون المرأة من التعلُّم في المدارس كما بينا سابقاً، لكنَّنا نجد أنّ أبا قسمونة قد اهتم بتعليم ابنته بنفسه حتى أصبحت شاعرة مقتدرة.

"واعتنى بتأديبها، وربَّما صنع من الموشَّحة قسما ً، فأتمتها هي بقسمٍ آخر، وقال أبوها يوما ً: أجيزي:

لي صاحبٌ ذو مهجةٍ قد قابلت نعمى بظلمٍ واستحلّت جُرْمها

ففكَّرت غير كثيرٍ وقالت:

كالشمس فيها البدرُ يقبسُ نوره أبدا ً ويكسف بعد ذلك جِرْمها

فقام كالمختبل، وضَمَّها إليه، وجعل يُقبِّلُ رأسها، ويقول: أنتِ والعشر كلمات أشعرُ مِنّي[2]**.**

ولا يمكن أن تكون قسمونة هي الفتاة اليهودية الوحيدة في الأندلس التي حظيت بالتعلُّم من قبل أبيها، بل هي في رأيي واحدة من بين الكثير من اليهوديات اللائي تـعلَّمن في بيوتهن.

والشريعة اليهودية تحرم المرأة نهائياً من الميراث، وتجعله من حق الولد الأكبر فقط[3]**. ولذلك وجدنا يهوديا ً أندلسيا ً يجدُ مخرجا ً له من هذا الظلم وذلك بحبس عقارٍ على ابنته وعلى عقبها. حيث يقول القاضي ابن سهل: "سئلتُ عن يهوديٍ حبس على ابنته فلانة البكر في حجره، وولاية نظره جميع القلعة التي بموضع كذا، وحدها كذا، وعلى من يولد له، وعلى أعقابهم، وأعقابِ أعقابهم، فإن لم يولد له ولد، فذلك حبسٌ على ابنته المذكورة، وعلى عقبها، وعقب عقبها، فإن انقرضوا رجع حبسا ً على مساكين المسلمين بلورقة، وقال في العقد: إنَّه أدار ذلك لابنته، بما يحوزُ به الآباء لأبنائهم، حتى تبلغ مبلغ القبض لنفسها"**[4]**. والذي يجعلنا نميل إلى أنَّ تصرُّف اليهودي هذا مع ابنته كان بتأثيرٍ من المسلمين، توصيته بالعقار إلى مساكين المسلمين في حال انقطاع عقب ابنته.**

وقد وجدت توافقاً بين ما استنتجته من خلال نصوص المصادر الإسلامية، وبين ما استنتجه نؤمان من المصادر اليهودية، حيث يقول: "والبنات لا يرثن من أبيـهن عندما يكون هناك أولاد، ولكن إعالتهن ومهرهن كانت من أملاك الأب. وكان هناك اختلاف كبير بين مركز المرأة اليهودية في القانون، ومكانتها في الحياة "[5]**. وورد ذكرٌ لامرأةٍ يهودية قرطبية من أهل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي**[6]**عند الونشريسي حيث يقول: "وسئل فقهاء قرطبة عن يهودي ذكر أنَّ امرأةً طلبته، وهي منهم عند قضاتهم بأشياء ادَّعتها على أبيه، وأنه على الفعل عليه في ما طالبته به، وأنَّ بـيده سجلا ً لقاضي الجماعة، ووثائق منعقدة بالخط العربي، وشهود المسلمين، وأثبت أنَّ قضاة اليهودِ وفقهاءهم على**

---

[1] المقري، نفح الطيب، م3، ص530.
[2] م.ن، م3، ص530.
[3] ظاظا، الفكرالديني اليهودي، ص195-196.
[4] ابن سهل، الحكام الكبرى، ص68.
[5] NEUMAN, ABRAHAM A, THE JEWS IN SPAIN, (PHELDELPHIA, 1944), VOL.2, P.63.
[6] خلاف، تاريخ القضاة في الأندلس، ص191.

عداوةِ أبيه، وأتت المرأة، وزعمت أنَّ حقها ثبت عند قضاتهم، وشهودها من اليهود، ومتى خرج نظرها عنهم بطل حقها"[1].

وتظهر المرأة اليهودية الأندلسية في هذه الرواية قوية ترفع قضيتها بنفسها، وتقف أمام القضاة اليهود، وتناقش القضاة المسلمين، وتحاورهم من أجل إثبات حقها. وأرى أن هذه الشجاعة والجرأة لا تصدر عن امرأة جاهلة، وتدل على أن تلك المرأة كانت مثقفة، وهي صفات يمكن أن توصف بها الكثيرات من نساء يهود الأندلس.

8-الزواج عند يهود الأندلس:

نصَّت الشريعة اليهودية على أنّ الزواج فرض من الفروض على كلِّ يهودي مهما كانت حالته الاجتماعية والصحية، فهو فرض على الصغار والكبار والفقراء والأغنياء والعلماء والجهلاء لأنه يجب عليهم الاشتراك في استبقاء النسل[2]. ومع ذلك فقد وجد من اليهودِ من عزف عن الزواج، مثل اليهودي الأندلسي إسحاق بن قسطار (ت:448هـ=1056م)، الذي "لم يتخذ قط امرأة"[3]. وتحرِّم شريعة اليهود الزواج من غير اليهود الذين تسميهم كفارا ً.

ويجوز عند اليهود الزواج من بنت الأخِ وبنت الأخت، بينما لا يجوز للمرأة أن تتزوج ابن أخيها أو ابن أختها وحرَّم كثيرٌ من فقهائهم زواج بنت الأخ. وهناك شاعرٌ يهوديٌ أندلسي اسمه موسى بن عزرا أحب ابنة أخيه، وطلب أن يتزوجها، لكن أباها رفض ذلك[4]، وهذا يشير إلى أنَّ هذه المسألة كانت مسألة خلافية بين علمائهم في الأندلس، وقد سُمح ليهود الأندلس بالزواج على طريقتهم، ولم يعارضوا حتى في الزواج من المحارم. وقد جاء في المدونة "قلت أرأيت أهل الذِّمّة إذا كانوا يستحلّون في دينهم نكاح الأمهات والأخوات وبنات الأخِ أنخليهم وذلك. قال: أرى أنه لا يعرض لهم في دينهم، وهم على ما عوهدوا عليه، فلا يُمنعون من ذلك إذا كان ذلك مما يستحلون في دينهم "[5].

وقد أباحت الشريعة الإسلامية للمسلم أن يتزوج من يهودية. وقد صرَّح بذلك فقهاء المسلمين، نذكر منهم ابن العطار، الذي قال: "وللرجل المسلم أن يتزوَّج الحرَّة النصرانية واليهودية في مذهب مالك"[6].ومع وجود هذه الإباحة، إلاّ أننا لم نقرأ في ما اطلعنا عليه من مصادر،عن مسلمين تزوجوا من يهوديات في الأندلس، بينما كثرت حالات الزواج هناك من نصرانيات، وسبب ذلك في تصوري يعودُ إلى تحريم شريعة اليهود لتزويج نسائهم من غير اليهود، إضافة إلى المبادئ اليهودية العنصرية التي تجعلهم أكثر ميلا ً إلى المحافظة على عنصرهم اليهودي من الاختلاط بغيرهم، كما أنَّ صورة اليهود في أذهان المسلمين، والتي تكوَّنت من خلال مواقفهم القديمة المعادية للأنبياء وللإسلام، جعلت المسلم لا يميلُ إلى الزواج من يهودية يمكن أن تصير أمَّا ً لأولاده.

---

[1] الونشريسي، المعيار المعرب، جـ10، ص128-129.
[2] الكواتي، اليهود في المغرب، ص127؛ كحالة، الزواج، جـ1، ص32-33.
[3] صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص89.
[4] محمد بحر، اليهود في الأندلس، ص70.
[5] مالك، وآخرون، المدونة، م2، ج4، ص312.
[6] ابن العطار، محمد بن أحمد الأموي، كتاب الوثائق والسجلات، تحقيق ونشر: شالميتا، ف.كورنيطي، (مدريد، مجمع الموثقين المجريطي، المعهد الأسباني العربي للثقافة، 1983م)، ص17.

وبسبب اشتغال كثير من يهود الأندلس بالتجارة الخارجية، وعدم اصطحابهم لزوجاتهم في أغلب الأحيان، وغيابهم الطويل عن ديارهم[1]، كثرت حالات زواج يهود أندلسيين من يهوديات غير أندلسيات. فتبين وثائق الجنيزة أنَّ يهوديا ً أندلسيا ً اتخذ زوجة يهودية من القاهرة[2]، وآخر اتخذ زوجة من اليمن[3]. ويبدو أنَّ بعض هؤلاء التجار، كان يترك زوجته في بلدها، وينزل عندها كلَّما مرَّ بهذا البلد. يمكن أن يفهم ذلك من رسالة بعث بها تاجر يهودي من الأندلس إلى زوجته في القاهرة يقول فيها: إني أعتزم المجيئ على الجيتاني، وهي سفينة يمتلكها تاجر من جيتا (في إيطاليا)[4]. كما تزوج أشخاص يهود زوجات غير أندلسيات، ودون أن يكونوا تجارا ً، مثل يوسف بن إسماعيل بن نغدله ابن وزير غرناطة ورئيس طائفتها، الذي تزوَّج ابنة العالم التلمودي الكبير نسيم بن يعقوب المقيم في القيروان[5].

ومن الإجراءات المتبعة عند اليهود تحرير عقود شرعية ليتمَّ الاعتراف بهذا الزواج، ويصحب هذا العقد بيان بكلِّ القطع التي تحضرها العروس معها، إضافة إلى ما يُتَّفق عليه من شروط[6].

والزواج من أكثر من امرأة عند اليهود جائز، ولم يرد في تحريمه نصٌّ واحد، لا في الكتاب المقدس، ولا في التلمود[7]، وقد مارسه يهود الأندلس[8]، لكنه كثر بين أغنيائهم فقط[9]. وقد وجِّه سؤال إلى الحبر موسى بن حنوخ في قرطبة (ت: 360هـ=970م)، يبيِّن أن يهوديا ً يدعى يعقوب تزوج من امرأتين هما ليَّا وراحيل[10].

وقد نتج عن تعدد الزوجات مشكلات تقوم بها على الأغلب الزوجة الأولى، وهناك حالات عديدة طلبت فيها زوجات يهوديات أندلسيات الطلاق وحصلن عليه، وأخذن حقوقهن المنصوص عليها في العقد، وذلك بالرغم من حبهنَّ لأزواجهن، ودافعهن فقط هو رفض الإهانة التي تراها الزوجة في زواج زوجها من أخرى[11].

وكانت إحدى أهم المشكلات الاجتماعية المتعلِّقة بموضوع الزواج، هي غياب الأزواج عن زوجاتهم مدة طويلة، وعن ذلك يقول نؤمان: "وعدد لا يحصى من النساء اللائي تركهنَّ أزواجهن، والذين لم يعودوا، أجبرن على البقاء مهجورات، لأنه لا يوجد هناك سبل شرعية لتحريرهن"[12].

9- الموسيقى والغناء:

---

(1) جوايتاين، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص258.
(2) S.D GOITEIN, JEWS AND ARABS, THEIR CONTACTS THROUGH THE AGES, P.112.
(3) جوايتاين، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص258.
(4) م.ن، ص213-214.
(5) م.ن، ص235-236.
(6) سرور، محمد شكري، نظام الزواج في الشرائع اليهودية والمسيحية، (القاهرة، دار الفكر العربي، 1978-1979م)، ص218-219.
(7) ظاظا، الفكر الديني اليهودي، ص192.
(8) NEUMAN, THE JEWS OF SPAIN, VOL.2, P.52; ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.147.
(9) جوايتاين، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص204.
(10) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.268.
(11) NEUMAN, THE JEWS OF SPAIN, VOL.2, P.55.
(12) IBID, VOL.2, P.49-50.

كانت الموسيقى والغناء من بين الفنون التي أخذها اليهود عن مسلمي الأندلس، وقد ترجمت مصادرنا لبعض الموسيقيين اليهود، أمثال إسحاق بن شمعون اليهودي القرطبي، الذي تصفه بأنه "أحد عجائب الزمان في الاقتدار على الألحان، وكان قد لازم ابن باجة، وأحسن الغناء بلسانه ويده، ... وكان له نظمٌ رائق كفاك من قوله:

قَمْ هاتِ كأسَكَ فالنعيم قد اتَّسَقْ — والعودُ عن داعي المسرَّةِ قد نَطَقْ

ولديكَ من حَتِّ الكؤوس أزهارا ً — في الخزِّ يَمْرَحُ كالأراكةِ في الوَرَقْ

والزهر زهرٌ والرياضُ سماؤها — والفجر نهرٌ والشقائق كالشَّفَقْ[1]

وقد مرت بنا سابقاً رواية المقري التي تذكر منصور اليهودي المغني الذي بعثه الحكم إلى المغرب لدعوة زرياب إلى الأندلس، وتبين كيف تم إكرامه فيها[2]. مما يدل على اهتمام أمراء الأندلس بالغناء، الأمر الذي انتقل أيضا ً إلى يهودها.

وكان العلم بالموسيقى، واحدا ً من العلوم التي ذكر صاعد الأندلسي أنَّ أبا الفضل حسداي بن يوسف، قد اهتم بها "ومنهم صنعة الموسيقى، وحاول عملها"[3].

وفي الحفلات الخاصَّة بيهود الأندلس، كان المغَنُّون فيها من اليهود، أمَّا المغنيَّات فلم يكن بينهنَّ يهوديات، وهن من الجواري غير المسلمات[4].

---

(1) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلي المغرب، جـ1، ص127، ترجمة رقم: 60.
(2) المقري، نفح الطيب، م3، ص124-125.
(3) صاعد، طبقات الأمم، ص89.
(4) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.163.

المبحث الثاني

العلاقات الاجتماعية بين المسلمين واليهود في الأندلس

قبل الخوض في موضوع العلاقات الاجتماعية بين المسلمين واليهود في الأندلس، أجدُ من المهم أنْ أقدِّم لذلك بتوضيح صورة اليهودي في ذهن وعقلية المسلم الأندلسي، والأسباب والعوامل التي أدت إلى تكوين هذه الصورة. وذلك لأنَّ صورة اليهودي في أذهان المسلمين قد أثرت في العلاقات الاجتماعية بين مسلمي ويهود الأندلس. والمصادر الأندلسية تقدِّم لنا مجموعة من النصوص والروايات المعبِّرة عن تلك الصورة.

ومن هذه النصوص قول ابن حزم الأندلسي: "اعلموا أيها الناس، علَّمنا الله وإياكم ما يقرِّبنا منه، ويُزلف حظوتنا لديه، أنَّ اليهودَ أبهتُ الأمم، وأشدّهم استسهالا ً للكذب، فما لقيتُ منهم أحدا ً قط مجانبا ً للكذب القبيح على كثرة من لقينا منهم، إلاَّ رجلا ً واحداً في طولِ أعمارنا، فطال تعجبي من ذلك، إلى أنْ ظفرتُ بسرِّهم من ذلك في هذا الباب، وهو أنَّهم يعتقدون بسخفهم وضعفِ عقولهم، أنَّ الملائكة الذين يحصون أعمال العباد لا يفقهون العربية، ولا يحسنون من اللغات شيئا ً إلاَّ العبرانية، فلا يكتب عليهم كلّ ما كذبوا فيه بغير العبرانية، فحسبكم بهذا المقدار من الجهل العظيم، والحمق التام"[(1)].

ويدعو ابن حزم إلى الحذر منهم، وعدم التقليل من خطرهم، فيقول: "وقال أبو نصر بن نباته:

فلا تحقرنَّ عدوّا ً رماك ... وإن كان في ساعديه قصر

فإنَّ السيوف تجذ الرقاب ... وتعجزُ عما تنال الإبرُ

لاسيّما إن كان العدوُّ من عصابة لا تحسن إلاَّ الخبث، مع مهانة الظاهر، فيأنسُ المغترُّ إلى الضعف البادي، وتحت ذاك الختل والختر والكيد والمكر، كاليهود الذين لا يحسنون شيئاً من الحِيَل، ولا آتاهم الله شيئاً من أسباب القوة، وإنَّما شأنهم الغش والتخابث والسرقة، على التطاول والخضوع، مع شدِةِ العداوةِ لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم"[(2)].

وقول الونشريسي واصفاً إحدى الفرق: "وهم أشدُّ في كيدِ الدين من اليهود والنصارى، لأنَّ هذين المذهبين، أعني اليهودَ والنصارى، قد عرف الناس أنَّهم كفار، ولا يلبس على الناس أمرهم، ولا يُخشى على المسلمين أن يظنوا أنَّ عندهم خيرا ً"[(3)].

وقول أبي إسحاق الإلبيري واصفا ً يوسف بن إسماعيل بن نغدله وزير باديس:

تخيَّرَ كاتبه كافرا ً ... ولو شاء كان من المسلمين[(4)]

وقول ابن الخطيب متحدِّثا ً أيضا ً عن كفر إحدى الملل:" وتعرَّض إليه قومٌ من الصفاعين والأوغاد من أهل سلا، ممن يأنف يهود لعنة الله على كفارها من انتسابهم إلى نحلتها، وتعلُّقهم بأذيالِ ملَّتها"[(5)].

---

(1) الرد على ابن النغريلي، ص64-65.
(2)الرد على ابن النغريلي، ص45-46.
(3) الونشريسي، المعيار المعرب، جـ2، ص446-447؛ قارن، المعيار، جـ11، ص168.
(4) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلي المغرب، جـ2، ص133، ترجمة رقم: 444.
(5) نفاضة الجراب، ص307.

وقول المعتمد بن عباد عندما نفي إلى جبل فازار بالمغرب الذي يكثر فيه اليهود: "غُرِّبنا بنقضِ العهود، لبلدٍ أهله يهود، وبناؤه عود، وجيرانه قرود"[1].

وقول آخر أمراء غرناطة في عهد الطوائف عبد الله بن بلقين عنهم: "وأخلاقهم كلّها مطابقة لما يدلُّ عليه زُحَل من البخلِ، والقذارة، والخبثِ، والمكر، والخديعة"[2].

وقولُ الكاتب أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم في رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه: "وأبدأ بحديثِ اليهودي موصل كتابك: دخل الحضرة عقب جولة كانت لي مع ابن مُخامس-حشر الله كليهما مع صاحبه- فوالله لا أعلم حال من منهما أضعف وأظلم، أحالُ اليهودي بمضادّة الدين، أم حال هذا المسلم؟"[3]. واستشهاده في إحدى قطعه النثرية بقول الشاعر أحمد بن الحسين:

ما مقامي بأرضِ نخلة إلاّ كمقامِ المسيح بين اليهود[4].

وقولُ أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد واصفا ً أحد خصومه: "فإنَّه بقية من بني إسرائيل الذين استحلُّوا الحرام، واجترحوا السيئاتِ والآثام"[5].

وقول ابن خلدون في معرض نهيه للمعلمين والمربين عن اللجوء إلى العنفِ والقهر: "وهكذا وقع لكلِّ أمَّةٍ حصلت في قبضةِ القهر، ونال منها العسف... وانظره في اليهود، وما حصل بذلك فيهم من السوء، حتى إنَّهم يوصفون في كلِّ أفقٍ وعصر بالخزح، ومعناه في الاصطلاحِ المشهور: التخابث والكيد"[6].

وقول ابن عبدون: "فإنهم لا يرون نصيحة مسلم، إلاَّ أن يطبِّبوا أهل ملَّتهم، ومن لا يرى نصيحة مسلم. كيف يوثق على المهج؟"[7].

وقول الأديب الأندلسي أبي طالب عبد الجبار مبينا ً رأيه في عقيدة اليهود:

وطابقوا اليهودَ في التجسيم أفٍّ له من منطقٍ ذميمِ[8].

وقول أصبغ بن محمد القرطبي (ت:505هـ=1111م) يهجو أحد معاصريه:

لو إلينا يكونُ دفنك حيَّاً لدفنّاك في قبور اليهودِ[9].

وقول أبي محمد بن الياسمين عبد الله بن حجاج الإشبيلي يهجو واحداً:

يا أعرق الناسِ في نسلِ اليهودِ وَمَنْ تأبى شمائله التفصيلِ للجُمَلِ

---

(1) الحميري، الروض المعطار، ص435.
(2) ابن بلقين، التبيان، ص188-189.
(3) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص161.
(4) م.ن، ق1، م1، ص159.
(5) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص214-215.
(6) ابن خلدون، المقدِّمة، تاريخ العلامة ابن خلدون، كتابة العبر وديوان المبتدأ والخبر، (بيروت، ط3، 1967م)، م1، ص1043.
(7) ابن عبدون، رسالة ابن عبدون في الحسبة والقضاء، ص57.
(8) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص924.
(9) العماد الأصفهاني، جريدة القصر، ق4، جـ2، ص242.

خذها بحكم اجتماعِ الذَمِّ واحدةً تُغني عن النعت والتوكيدِ والبَدَلِ[1]

وقول والد ابن سعيد الأندلسي لولده ابن سعيد الذي كان صديقا ً لابن سهل الإسرائيلي معترضا ً على اشتراكه مع ابن سهل في هجاءِ إبراهيم بن حجاج: "ما أبعد الفَلاحَ عن وجهك! ما كفى أنَّك أدخلتَ روحك في النميمة بهجو الأعيان، حتى رضيتَ أن تكون زاملةً ليهوديٍ شاعر"[2].

وقولُ أبي الحسن علي بن يوسف الحكيم محذرا ً من غش اليهود: "ويُتحفَّظُ من احتيالِ اليهود لعنهم الله وخِدَعهم"[3].

وقول ابن عبدون: "يجب أن لا يُباع ثوبٌ لمريضٍ، ولا ليهودي، ولا لنصراني، إلاَّ أن يُعرَّفَ به، ولا لخليعٍ أيضا ً"[4]، فقد جمع ابن عبدون ثوب اليهوديّ باعتبار أنَّ الناس ينفرون منه مع ثوبِ المريض والخليع.

وقول الونشريسي في تعقيبه على نازلة "ما إذا اشترى الرجل دارا ً لها بئر مشتركة مع الدار التي تجاورها، ثم ألفى تلك الدار المجاورة ليهودي أو نصراني"[5]: "ومسألتنا وجود النفرة في النفس من البئر المشتركة مع يهودي أو نصراني، فليتأمَّل ذلك"[6].

وقول الونشريسي أيضا ً: "سئل القابسي عن رجلٍ بجواره يهودي، قد ربى معهم، فربما جاءوه في حاجة، أو عرضت له إليهم حاجة، وربما مشى في طريق ملاصقة لهم، فيجري بينهم حديث أو ابتسام، وكلام لين، وهذا الرجل يقول: الله عالم ببغضي لليهود، ولكن طبعي لين"[7].

وللضبي رواية لها دلالتها في هذا الموضوع، يبَيّنُ فيها أنَّ أبا عبد الله بن طاهر التدميري[8]، انـزعج كثيرا ً عندما رأى في منامه أنه سيحشر يوم القيامة مع يهودي من سكان مصر، ولم تهدأ نفسه إلا بعد أن بحث عن اليهودي ووجده، وأخبره بما رأى في منامه، وأسلم اليهودي على يديه، وحسن إسلامه[9]. وفي ذلك دليلٌ على أن هذا المسلم الأندلسي يعتقد أن اليهود ليست على شيئ.

ولم ينفرد مسلمو الأندلس بهذا التصوُّر عن اليهود، بل شاركهم فيه المسلمون في كلِّ زمانٍ ومكان، ولتأكيد ذلك نذكرُ قول الشاعر جمال الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن المقرَّب العيوني (572-629هـ=1176-1231م):

---

(1) ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (القاهرة، دار المعارف، ط2، د.ت)، ص46.

(2) ابن سعيد الأندلسي، اختصار القدح المعلَّى، ص141.

(3) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، "صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، نشر: حسين مونس، (م6، ع2، 1378هـ-1958م)، ص121.

(4) ابن عبدون، رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، ص50.

(5) الونشريسي، المعيار، جـ5، ص208.

(6) م.ن، جـ5، ص208.

(7) م.ن، جـ11، ص300-301.

(8) لم تنص الرواية صراحة على أنَّ الحادثة وقعت مع ابن طاهر. ولكن يفهم ذلك من نصٍّ ورد فيها وهو: "وحكى أبو العباس وليد بن عبد الرحمن الفرضي التدميري، قال: سمعت أبا عبد الله بن طاهر الزاهد، أيام جاورنا في قريته يقول: حدَّثني الثقة، وكنا إذا سمعناه يقولها حسبناه يريد نفسه". الضبي، بغية الملتمس، ص84-85. ثم إنَّ هذه الحادثة ذكرت في موضعٍ يترجم فيه الضبي لأبي عبد الله بن طاهر.
ينظر: الضبي، بغية الملتمس، ص83.

(9) الضبي، بغية الملتمس، ص83-86. (ترجمة رقم: 154).

من كلِّ مغلولِ اليدين عن النّدى فاق اليهودَ لآمة وغُلُولا[1]

وشهد عبد الله بن سلام اليهودي الذي أسلم وأصبح صحابيا ، بإحدى صفات اليهود في قوله: "يا رسول الله: إنَّ اليهودَ قومٌ بُهت"[2]**.**

وليس المسلمون وحدهم هم الذين حملوا هذا التصوَّر عن اليهود، بل لقد حمله النصارى أيضا ، ولذلك حرَّموا على اليهود دخول القدس، ورفضوا تسليمها للمسلمين زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلاَّ بعد أن "اشترطوا أنْ لا يساكنهم اليهود فيها"[3]**.**

تُرى ما السبب الذي أدَّى إلى تكوين هذه الصورة عن اليهود في أذهان المسلمين؟ والجواب في رأيي يتلَخَّصُ في عداء اليهود الشديد للإسلام والمسلمين. هذا العداء الذي لم يبدأ من بعثةِ الرسول محمد صلى الله عليه وسلَّم، وإنَّما بدأ منذ أن نشأ بنو إسرائيل، وأرسل الله فيهم أباهم يعقوب (إسرائيل) نبيًّا ، فعادوا دينه وخانوا مبادئه، أجمعوا على أن يقتلوا أخاهم يوسف. واستمرَّ عداؤهم للأنبياء المسلمين[4] **المؤمنين، فكفروا بهم، وعاندوهم، وقتلوا العديد منهم، حتى عرفوا بأنَّهم قتلة الأنبياء**[5]**.**

وكان للقرآن الكريم الدور الأول في تكوين صورة اليهود في أذهان المسلمين وتصوراتهم، حيث أوضحت آياته الكريمة التي يتلوها المسلمون باستمرار تاريخ اليهود الطويل في تكذيب ومعاندة الرسل، وفي معصية أوامر الله تعالى، والاستهزاء بآياته، كما أيقنوا بأن اليهود أعداؤهم عندما قرأوا قول الله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ [6]**.**

ولم ينس المسلمون أنَّ اليهود حاولوا مرَّاتٍ عِدَّة قتل نبيِّهم محمد -صلى الله عليه وسلم- بل إنَّ منهم من يعتقد أنَّ موته كان على أيديهم[7]**.**

---

(1) ابن المقرب العيوني، جمال الدين أبي عبد الله محمد بن علي، ديوان ابن المقرب، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، (مصر، ط1، 1383 هـ-1963م)، ص411.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح أبي عبد الله البخاري بشرح الكرماني، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت)، جـ13، ص227.

(3) الحميري، الروض المعطار، ص69.

(4) أعتقد أنَّ الأنبياء جميعاً كانوا مسلمين. والآيات الدالة على ذلك كثيرة. أذكر منها قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ آل عمران/67. وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. البقرة/ 130-133. وقوله تعالى في قصة ملكة سبأ: ﴿ قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾. النمل/29-31. وعندما آمنت ملكة سبأ بدين سليمان ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. النمل/44.

(5) قال الله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. آل عمران/112.

(6) ينظر: سورة المائدة، آية 82.

(7) ابن قيم الجوزي، زاد المعاد، جـ2، ص140، أبو عبد الله، زاد المعاد في هدي خير العباد، جـ2، (دار الفكر، ط2، 1392هـ-1972م)، ص139-140.

وقد أورد ابن سعيد الأندلسي شعرا ً نسبه إلى اليهودي يوسف بن إسماعيل بن نغدله، وذكر أنه كتبه إلى أهل غرناطة بعد قتلهم أبيه[1]، ويدلُّ هذا الشعر على تباهي يهود الأندلس بقتلهم لكلٍّ من المسيح والنبي محمد عليهما الصلاة والسلام. وهذا الشعر هو:

أقتيلاً بسنجل ليس تخشى	**حَشرَ جسمٍ، وقد سمعتَ النصيحا**
غودِرَ الجسم في الترابِ طريحاً	**وغدا الرُّوحُ في البسيطةِ ريحا**
أيها الغادرون هلاّ وفيتم	**وفديتم شبه الذبيحِ الذبيحا**
إنْ لم يكن قتلكم دون ذنبٍ	**قد قتلنا من قبل ذاك المسيحا**
ونبيَّاً من هاشمٍ قد سممنا	**خرَّ من أكلةِ الذراعِ طريحا[2]**

وهم يعتقدون أيضا ً أنّ اليهود كانوا وراء الفتنة الكبرى التي أدَّت إلى استشهادِ عثمان رضي الله عنه، وإلى فتنٍ وحروب، عانى المسلمون، وما زالوا يعانون من آثارها[3]. ويعرف المسلمون ما يكنُّه اليهود لدينهم ولنبيهم من كره وحقد، وما تحويه كتبهم من توصيات تدعو إلى الحقد على المسلمين، كتلك التي سجَّلها سفر حازوحار وجاء فيها: "يا أبناء إسرائيل اعلموا أننا لن نفيَ محمَّدا ً حقه من العقوبة التي يستحقها حتى ولو سلقناه في قِدْرٍ طافح بالأقذار، وألقينا عظامه النخرة إلى الكلاب المسعورة، لتعود كما كانت نفايات كلاب، لأنه أهاننا، وأرغم خيرة أبنائنا وأنصارنا على اعتناق بدعته الكاذبة، وقضى على أعزِّ آمالنا في الوجود، ولذا يجب عليكم أنْ تلعنوه في صلواتكم المباركة أيام السبت، وليكن مقرّه في جهنَّم وبئس المصير"[4].

وقد عبَّر ابن حزم عن معرفته بكره اليهود في الأندلس للإسلام ونبيّه بقوله: " فإنَّ بعض من تقلَّى قلبه للعداوةِ للإسلام وأهله، وذوِّبت كبده ببغضه للرسول صلى الله عليه وسلم من متدهرة الزنادقة، المستترين بأذلِّ الملل، وأرذل النحل من اليهود..."[5].

ومما ساعد على تكوين هذه الصورة لليهودِ في أذهان المسلمين، أنَّ اليهود "ينظرون إلى الناسِ بعينِ النقصِ والازدراء إلى أبعد غاية"[6]. فقد جاء في التلمود: "الفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهودِ وبقية الشعوب"[7]. وأظهر التلمود كرها ً شديدا ً، وحقدا ً خاصا ً للمغاربة. فجاء فيه: "إنَّ سكان المغرب شعبٌ من المجرمين"[8].

---

(1) أخطأ ابن سعيد الأندلسي عندما ذكر أنَّ الوزير اليهودي الذي قتله مسلمو غرناطة في ثورتهم على اليهود هو إسماعيل بن نغدله، إذ خالف بذلك المصادر الإسلامية التي ذكرت أنه يوسف بن إسماعيل، كما خالف ابن بلقين أحد أمراء غرناطة، ومعاصر هذا الحدث، إضافة لمخالفته للمصادر اليهودية، تفاصيل هذا الموضوع تنظر في فصل اليهود والسلطة.
ولذلك أرى أنَّ هذا الشعر قد نسب خطأً إلى يوسف بن إسماعيل. والظاهر أنه ليهودي أندلسي قاله في أعقاب مقتل يوسف بن إسماعيل.

(2) ورد هذا الشعر، وكذلك نسبته إلى يوسف بن إسماعيل عند ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص115. ترجمة رقم: 427.

(3) ينظر: الطبري، تاريخ، جـ4، ص340-396، 506-544؛ جـ5، ص5-48.

(4) ناجي، س، المفسدون في الأرض، (دمشق، العربي للإعلان والنشر والطباعة، ط2، 1973م)، ص123.
نقلا ً عن: سفر حازوحار المطبوع بالفرنسية سنة 1907م، جـ2، ص88.

(5) ابن حزم، الرد على ابن النغريلي اليهودي، ص46.

(6) السموءل بن يحيى، بذل المجهود، ص59-60.

(7) مظهر، سليمان، قصة الديانات، (دار الوطن العربي، د.ت)، ص376.

(8) نقلا ً عن: الكواتي، اليهود في المغرب، ص65.

وظهرت هذه العنصرية والاحتقار لغير اليهود في فتوى لأكبر علماء اليهود موسى بن ميمون ذو الأصل الأندلسي، حيث يقول: "إنَّ لليهود الحق في اغتصاب النساء الغير مؤمنات، أي الغير يهوديات، فهنَّ في نظر التلمود وشراحه من الحاخامات كالبهائم، لأنهنَّ غير يهوديات"[1].

وقد عبَّر القرآن الكريم عن استهتارهم واحتقارهم للأمم الأخرى في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [2].

والفرق بين الدافع في عداء اليهودي للمسلم، والدافع في عداء المسلم لليهودي هو أنَّ اليهودي يعادي على أساسٍ عنصريٍ أمَمِيّ، فهو عدوٌّ لكلِّ من هو غير يهودي، وهذا النوع من العداء لا يمكن أن ينتهي، لأنَّ غير اليهودي لا يمكن أن يصبح يهوديا ً، إذ أنَّ اليهودي في نظر اليهود هو يهودي النسب والدين، ولا يُعَدُّ يهوديا ً من اعتنق اليهودية وأصوله ليست يهودية.

أما دافع عداء المسلم لليهودي فسببه معاداة اليهودي للإسلام، وإذا ما توقَّف هذا العداء، ودخل اليهودي في الإسلام، فإنَّ عداء المسلم له يتوقف، ويصبح واحدا ً من المسلمين. وقد عبَّر عن ذلك عمر بن عبد العزيز-رضي الله عنه- عندما قال: "فإن أسلم فهو منَّا ونحن منه"[3]، وعبر عنه الفقيه سحنون عندما قال: "إلاَّ من عداوتنا لليهودي والنصراني، إنما هي في الدين"[4]. وعبَّرت عنه أفعال الرسول صلّى الله عليه وسلم، فقد تزوج من صفية بنت حيي بن أخطب بعد أن أسلمت فصارت أمَّا ً للمؤمنين مع أنها كانت يهودية، وابنة يهودي شديد العداء للمسلمين[5]، وتزوج طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه من يهودية بالشام[6]. ولو كانت هناك دوافع أخرى للعداء غير معاداة اليهود للإسلام، لما سمح الإسلام لأبنائه بالارتباط باليهود بعلاقاتٍ تصل إلى حدِّ التزوج منهم.

وبالرغم من بشاعة الصورة التي يحملها المسلمون في الأندلس عن اليهود، ومعرفتهم بأخلاقهم وطبائعهم، إلاَّ أنَّهم تعاملوا معهم بالعدلِ والإنصاف الذي أمرَ به ربهم في قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[7]. وأوصى به نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم في قوله: "ألا من ظلم معاهدا ً، أو انتقصه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا

---

[1] م.ن، ص129.
[2] سورة: آل عمران، آية: 75.
[3] ورد هذا النص في رسالة بعث بها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى أحد عماله.
ينظر: ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ق1، ص214.
[4] ابن العطار، كتاب الوثائق والسجلات، ص333.
[5] ابن هشام، السيرة النبوية، ق2، جـ3، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، (القاهرة، ط2، 1375هـ-1955م)، ص336.
[6] مالك وآخرون، المدونة، م2، جـ4، ص308.
[7] سورة المائدة، آية:8.

ً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"[1]. وقوله: "من آذى ذِمّياً فأنا خصمه، ومن كنتُ خصمه خصمته يوم القيامة"[2].

وقوله: "من قتل معاهداً لم يَرَحْ رائحة الجنة، وإنَّ ريحها توجد من مسيرةِ أربعين عاماً"[3].

وحضّ عليه الصحابة الكرام بأفعالهم، وأقوالهم. ومن ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه مرَّ ببابِ قومٍ وعليه سائل يهودي يقول: شيخ كبيرٌ ضرير البصر، فقال له عمر: ما ألجأك إلى هذا ؟ قال: الحاجة والجزية. فأخذ عمر بيده، وذهب إلى منزله، وأعطاه شيئا ً، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، وقال له: انظر هذا وأمثاله: فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبَته، ثمَّ نخذله عند الهِرَم، وقرأ قوله تعالى: "إنَّما الصدقات للفقراءِ والمساكين، وقال: والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه"[4]. وسار على هذا النهج الخلفاء من بعده، إذ كتب عمر بن عبد العزيز-الذي كانت الأندلس إحدى ولاياته- يوصي أحد الولاة ويقول: "ثمَّ انظر من قِبَلَكَ من أهل الذِّمَّة، قد كبرت سِنُّه، وضعفت قوَّته، وَولَّت عنه المكاسب، فأجرِ عليه من بيتِ مال المسلمين ما يصلحه، فلو أنّ رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سِنُّه، وضعفت قوَّته، وَولَّت عنه المكاسب، كان من الحقِّ عليه أن يقوته، حتى يُفرِّق بينهما موتٌ أو عتق". وما ذكره ابن كثير في تفسيره "أنَّ رجلاً سأل ابن عباس، فقال: إنَّا نُصيبُ في الغزو من أموالِ أهلِ الذِّمَّةِ الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: "ليس علينا في الأميين سبيل". إنَّهم إذا أدوا الجزية لم تَحِلّ لكم أموالهم إلاَّ بطيب أنفسهم"[5]. ودعا إليه فقهاء المسلمين مثل ابن حزم الأندلسي الذي يقول: "إنَّ من كان في الذِّمَّةِ وجاء أهلِ الحربِ إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أنْ نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صونا ً لمن هو في ذِمَّةِ الله تعالى، وذِمَّةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلم، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة"[6]. وقول القرافي المالكي: "فمن اعتدى عليهم، ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله تعالى، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذمة دين الإسلام"[7]

وقد التزم مسلمو الأندلس عمليا ً بهذه المبادئ والأوامرِ والتوصيات. والمصادر الإسلامية تحتوي على أمثلة كثيرة تدلُّ على ذلك.وهم لم يقسوا على اليهود إلاَّ ردًّا ً على نقضهم لعهودهم وتجاوزهم لحدودهم. ومن هذه الأمثلة، أنَّ الفاتحين المسلمين أعطوا أهل الأندلس منذ أن دخلوها عهودا ً تضمَّنت حفظ حقوقهم. ومن هذه العهود العهد الذي أبرمه عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تدمير عند فتح مدينة تدمير، إذ جاء فيه: "هذا كتابٌ من عبد العزيز بن موسى لتدمير بن عندريس، إذ نزل على الصلح، أنَّ لهم عهد اللهِ وميثاقه، وما بعث به أنبياءه ورسله، أنَّ له ذِمَّة الله

---

[1] أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني، سنن أبي داود، جـ2، (مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، 1371هـ-1952م).

[2] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير من حديث البشير النذير، جـ2، (مصر، مطبعة الحلبي البابي، ط4، 1373هـ)، ص473.

[3] البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح أبي عبد الله البخاري بشرح الكرماني، جـ13، ص132.

[4] أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، الخراج، (القاهرة، المطبعة السلفية، ط4، 1392هـ-1972م)، ص144.

[5] ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، (بيروت، دار القرآن الكريم، ط3، 1399هـ)، ص292.

[6] القرافي، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، الفروق، جـ3، (مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1346هـ).

[7] م.ن، جـ3، ص14.

عز وجل، وذِمَّة محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، ألاَّ يُقدَّمَ له، وألاَّ يُؤَخَّرُ لأحدٍ من أصحابه بسوء، وأنْ لا يُسْبَونْ، ولا يُفرَّق بينهم وبين نسائهم وأولادهم، ولا يُقتلون، ولا تُحرْق كنائسهم، ولا يُكرهون على دينهم"[1].

وبالرغم من أنه لم تصل إلينا وثائق أخرى من العهود المبرمة بين المسلمين واليهود في الأندلس، إلاَّ أنَّه من المؤكد أنَّ عددا ً منها قد أبرم، وأنها احتوت على الحقوق نفسها، لأنَّ أحكام اليهود والنصارى واحدة في الشريعة الإسلامية. ومن الأمثلة الدالة أيضا ً على التزامهم بتلك المبادئ والعهود. رواية النباهي التي يقول فيها: "كان القاضي سليمان بن الأسود رجلا ً صالحا ً متقشِّفا ً صليبا ً في حكمه، مهيبا ً وكان السبب في تقليد الأمير محمد إياه قضاء قرطبة، حُكمٌ أمضاه بمدينة ماردة، وهو قاضٍ عليها للأميرِ عبد الرحمن والده، ومحمد أميرٌ عليها: وقد احتبس لرجلٍ يهوديٍ من تجار جلِّيقية مملوكة أعجبته، واشتطَّ اليهوديُّ في سَوْمها، فدسَّ غلمانه لاختلاسها من اليهودي.وفزع اليهودي إلى سليمان بمظلمة، واستشهد بمن حول دار الإمارة ممن عرف خبرها. فأوصل سليمان إلى محمد، يُعرِّفه بما ذكره اليهودي، وما شُهد به لديه، ويُقبِّحُ عنده سوء الأحدوثة عنه، ويسأله دفع مملوكته إليه، فأنكر محمد ما زعمه اليهودي، ولواه بحقِّه، فأعاد القاضي إليه الرسالة يقول له: إن هذا اليهودي الضعيف لا يقدرُ أن يدَّعي على الأمير بباطل! وقد شهد إليه سليمان ثانية، يُقسم بالله العظيم، لئن لم يصرف على اليهودي جاريته، ليركبنَّ دابته من فوره، ويكون طريقه إلى الأمير والده، يعلمه الخبر، ويستعفيه من قضائه. فلم يلتفت محمد إلى وصيته. فشدَّ سليمان على نفسه، وركب دابته سائرا ً إلى قرطبة، وكانت طريقه على باب دار الإمارة، فدخل الفتيان إلى محمد، فعرَّفوه بسيره فأشفق من ذلك، وأرسل خلفه فتىً من ثقاته، يقول له: إنَّ الجارية قد وجد خبرها عند بعض فتيانه، وقد كان أَخفاها بغيرِ أمره، وها هي حاضرة تُرَدُّ إلى اليهودي، فلحقه الرسول على ميلٍ أو نحوه من ماردة، وأعلمه.فقال: والله لا أنصرفُ من موضعي راجعا ً، أو أوتى بالجارية إلى هذا المكان، ويقبضها اليهودي ها هنا! وإلاَّ مضيتُ لوجهي. فأرسل محمد الجارية إليه فلما صارت بين يديه، أرسل في اليهوديّ مولاها وفي ثقاتٍ من ثقاتِ أهل البلد، ودفعها إليه بمحضرهم. وأعجب الأميرَ محمدا ً ما كان منه، واسترجحه، واعَتقَدَ تفضيله، فلما ولي الخلافة، واحتاج إلى قاضٍ، ولاَّه وأعزَّه"[2].

ومثلما تظهر الرواية عدل القاضي الأندلسي، وإنصافه لليهودي، فهي تُظهر أيضاً عَدْلَ الحاكم الأندلسي، الذي أعجبه أن يتشدَّد القاضي كلَّ هذا التشدُّد من أجل إنصاف اليهودي، بالرغم من أنَّ إنصافه قد سبب حرجا ً له، ودفعه للخضوع إلى أمر القاضي.

ومما يؤكِّد هذا الإعجاب أنَّ الأمير محمدا ً عندما صار أميرا ً على الأندلس (238-273هـ=852-886م)، رفع القاضي سليمان بن أسود إلى منصب قاضي الجماعة[3].

---

(1) العذري، ترصيع الأخبار، ص524.

(2) النباهي، المرقبة العليا، ص56-57؛ قارن: ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، جـ1، ص151-152، ترجمة رقم:91.

(3) الخشني، قضاة قرطبة، ص155؛
ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص151-152؛ النباهي، المرقبة العليا، ص56.

كما تظهر الرواية أيضا ً أنّ العدل والإنصاف والجرأة في قول الحق، صفات تحلَّى بها مسلمو الأندلس إذْ أنَّ الذين شهدوا الحادثة منهم، توجهوا إلى القاضي، وشهدوا مع اليهودي، ولم يمنعهم من الإنصاف والشهادة الصادقة، أنَّ الأمر يتعلَّق بيهوديّ، يعلمون عداءه للإسلام والمسلمين، وأنَّهم بشهادتهم تلك سوف يناصرونه على أميرٍ مسلم.

ومما يدلُّ أيضا ً على أنَّ نظرة المسلمين في الأندلس إلى اليهود لم تمنع المسلمين من إنصافهم، قول ابن عبد الرؤوف: "وإن كسر مسلم خمر ذِمّي عوقب"[1]. وتصريح بعض فقهاء الأندلس بضرورة أن يجلس القاضي المسلم خارج المسجد، كي يتمكَّن اليهودُ وغيرهم من الوصول إليه، ورفع تظلماتهم[2].

[1] ابن عبد الرؤوف، في آداب الحسبة والمحتسب، ص95.
[2] خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ص225-227.

كما ظهر إنصاف المسلمين لليهود وهم يتحدثون عن بعض رجالاتهم. حيث يقول صاعد الأندلسي في معرض وصفه لابن جابيرول: "لطيف الذهن، حسن النظر"[1]، ويقول في وصف إسحاق بن قسطار: "وكان حميد المذهب، جميل الأخلاق، جالسته كثيرا ً، فما رأيتُ يهودياً مثله في رجاحته، وصدقه، وكمال مروءته"[2].

ويقول الشنتريني: "يقول الوزير الكاتب أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد: جلس إليّ يوما ً يوسف بن إسحاق الإسرائيلي، وكان أفهم تلميذ مرَّ بي"[3]. ويقول المقري: "ولأهل الأندلس دعابة، وحلاوة في محاوراتهم، وأجوبة بديهية مسكتة، والظرف فيهم، والأدب كالغريزة، حتى في صبيانهم ويهودهم"[4]. ويقول أيضا ً في معرض حديثه عن ابن سهل الإسرائيلي: "ولمَّا غرق قال فيه بعض الأكابر: عاد الدرُّ إلى وطنه"[5]. ويقول ابن سعيد الأندلسي في وصفه لإبراهيم بن الفخار اليهودي: "وكان والدي يصفه بالتفنن في الشعر ومعرفة العلوم القديمة والمنطق"[6].

---

(1) طبقات الأمم، ص89.
(2) م.ن، ص89؛ قارن: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص498.
(3) الذخيرة، ق1، م1، ص233.
(4) المقري، نفح الطيب، م3، ص381.
(5) م.ن، م3، ص522-523.
(6) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص23، ترجمة رقم: 339.

وقد لاحظ يهود الأندلس إنصاف المسلمين لهم، وحرصهم على العدل، فكانوا إذا اختلفوا مع مسلمين، ورفع الخلاف إلى القضاء الإسلامي، يتوجَّهون إليه، وهم واثقون مطمئنون بأنَّهم سينصفون، ويأخذون حقَّهم، حتى لو كان خصمهم أميراً أو ابن أمير[1].

وكانوا يدلون بحججهم، ويجادلون عنها، ويطالبون بحقهم، دون أدنى خوفٍ أو وجل وقد لاحظ ذلك أيضا ً آشتور، واعترف به[2].

وأمامنا قضايا كثيرة تدلُّ على ذلك، منها قول ابن سهل: "فهمنا -وفقك الله- ما تنازع فيه ورثة ابن علاء واليهودي بأن قال ورثة ابن علاء: إنّ ابن علاء باع من اليهودي درنوكاً(*) وشقة، وبقي ثمنهما عنده.وقال اليهودي: لم أشترهما منه، أنا دلال أبيع للناس، فسألني بيعهما له، فبعت الدرنوك بثمن والشقة بثمن، وأوردت جميع ذلك عليه وأخذتُ أجرتي منه، فالذي يذهب إليه جل أصحاب مالك وسحنون معهم، أنَّ القول قول اليهودي مع يمينه"[3].

ومنها قضية الخلاف بين يهوديٍ وغلام مسلم التي ذكرها ابن سهل، ويدَّعي فيها اليهودي أن الغلام عبده، وأنه يهوديّ وليس مسلما ً، ويدّعي الغلام أنه مسلم وأنه خدم اليهودي، مقابل الأجر وليس على سبيل العبودية[4]. ففي هذه القضية نلاحظ جرأة اليهودي في مخاطبة القاضي، إذ يقول ابن سهل: "وسأل اليهودي أن يحبس الغلام في السجن. ثم قال الأمين: أَبِقَ الغلام مني من غير تفريط في الاحتراسِ به، فقال اليهودي: إنه كان سبب إباق الغلام، أنَّ الأمين خرج به مع نفسه إلى ضيعته... وطلب اليهودي إغرام الأمين قيمة الغلام"[5].

ودفع عدل المسلمين وإنصافهم أن يفضِّل كثيرٌ من اليهود الاحتكام إلى القضاة المسلمين على الاحتكام إلى القضاة اليهود، إذا اختلفوا في ما بينهم معتقدين أنَّ القضاة المسلمين أكثر عدلا ً وإنصافا ً من قضاتهم. وعن ذلك يقول الونشريسي: "سئل ابن العطار عن جماعة من اليهود، يطالبون شخصا ً منهم بمظالم ودعاوى، ويزعمون أنَّ لهم براهين ببيِّنة يهود، ويذهبون إلى محاكمته ببينة اليهود، والمدّعى عليه يرغب بمحاكمته عند حكام المسلمين، إذ بيده وثيقة عربية بعدول المسلمين مما يطالبونه به"[6].

---

[1] النباهي، المرقبة العليا، ص56-57.

[2] ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.88.

(*) الدُّرنوك: ضرب من البُسُط ذو خَمْل، وتشبّه به فروة البعير.
الزاوي، الطاهر أحمد، ترتيب القاموس المحيط، جـ2، مادة: "درنك"، (دار الفكر، ط3، د.ت)، ص176؛ مرعشلي، نديم وأسامة، الصحاح في اللغة والعلوم، م1، مادة: "درنك"، (بيروت، دار الحضارة العربية، 1974م)، ص400.

[3] ابن سهل، الأحكام الكبرى، ص73.

[4] م.ن، ص47-51.

[5] م.ن، ص48-49.

[6] الونشريسي، المعيار المعرب، جـ10، ص156.

كما أورد الونشريسي مسألة بعنوان: "اختلاف يهودي ويهودية بقرطبة على التقاضي عند المسلمين أو اليهود"[1]. وقد انزعج قادة اليهود كثيرا ً من هذه الظاهرة، إذ يقول آشتور: "وكان رؤساء الطائفة اليهودية بطبيعة الحال، يعارضون ذلك بشِدَّة، وطالبوا اليهود بأن يلجأوا إلى المحاكم اليهودية"[2].

وفي رواية الضَّبِّي التي استشهدنا بجزء منها سابقا ً، والتي تتحدَّث عن وزير صاحب المرية اليهودي، الذي كان يردّد اسم محمد-صلى الله عليه وسلم-بطريقة ساخرةٍ مهينة، وضربه على إثر ذلك الفقيه عبد الله بن سهل فقتله. تُظهر بقية الرواية أنَّ الفقيه بمجرد أنْ قتل اليهودي، ركب دابته وغادر المدينة بأقصى سرعة[3]، "وحينئذٍ تحقَّق الفقيه أنه آمن في سربه"[4]. ومما تدلُّ عليه هذه الحادثة، وجود العدل والإنصاف في التعامل مع يهود الأندلس. فالفقيه يعلم أنَّ بقاءه في إمارة المرية، سيعرِّضه للمحاكمة، وربما للعقاب الشديد، لأنه قتل يهوديًا ً. ولن يغفر له أمام القضاء الإسلامي، أنَّ المقتول يهوديٌّ، وأنَّه كان يهين النبي صلى الله عليه وسلم، وأنَّ قاتله فقيه مشهورٌ ذو مكانة رفيعة وهيبة كبيرة[5]. لأنه لا يجوز في وجود دولة وقضاةٍ للمسلمين أنْ يتصرَّف الأشخاص وحدهم نيابة عن السلطة، ويصدروا الأحكام وينفِّذوها.

وفي معرض ترجمته لأيوب بن سليمان السهيلي، من ولد سهيل بن عبد العزيز بن مروان الذي عاش في عهد المرابطين[6]، يقول ابن سعيد الأندلسي: "اتفق له في طريقه، أن أكرمه بدوي نزل عنده، وقد تخيَّل أنه رسولٌ من بعض ملوكِ الملثمين، أو ممن يلوذ بهم.فلما أعلمه غلامه أنه من بني أميَّة هاج، وأخذ رمحه، وحلف أن لا يبقى له في منزل، فقال لغلامه: إذا سئلتَ عني فقل إنه من اليهود، فإنه أمشى لحالنا"[7].

كما دفع عدل المسلمين وإنصافهم، وعظمة دينهم، أن يترك عددٌ من اليهود دينهم، ويدخلوا في الإسلام. وذلك بالرغم مما يُعرفُ به اليهود من صعوبة أن يتحولوا إلى دينٍ آخر.وقد كان من بين الداخلين في الإسلام يهودٌ من مشاهير علمائهم أمثال أبي عمر يوسف بن صديق الذي تولّى قضاء اليهود في قرطبة من (430-439هـ=1083-1047م)، وكان إسلامه في نهاية عصر المرابطين، وفي أواخرِ أيام حياته[8].

وقد ترجم ابن عبد الملك المراكشي لأحمد بن إبراهيم بن يهوذا، كواحدٍ من علماء الأندلس المسلمين[9]، ويظهر اسمه أنه من أصولٍ يهودية، وذكر ابن باجة طبيبا ً أندلسيا ً يدعى أبو جعفر يوسف بن أحمد بن حسداي، وقال بأنه

---

(1) الونشريسي، المعيار المعرب، جـ10، ص128-130.
(2) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P87.
(3) الضبي، بغية الملتمس، ص346، ترجمة رقم: 928.
(4) م.ن، ص346، ترجمة رقم: 928.
(5) م.ن، ص345-346، ترجمة رقم: 928.
(6) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص60-61، ترجمة رقم: 11.
(7) م.ن، جـ1، ص61، ترجمة رقم: 11.
(8) HAIM BEINART, CORDOBA , ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.5, P.215; عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص67.
(9) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ق1، ص65، ترجمة رقم: 51.

من أفاضل الأطباء في الأندلس[1]، ويدلّ اسمه أيضا ً ووصفه بأنه من أفاضل الأطباء. واسم أبيه وجده على دخول هؤلاء في الإسلام. كما ترجم ابن الفرضي لمحمد بن عزرة من منطقة وادي الحجارة بالأندلس، والذي يدلُّ اسمه على أصوله اليهودية. وعدَّه أحد علماء المسلمين في الأندلس[2]. وإنَّ هذه الترجمات تدل على دخول عدد من اليهود في الإسلام عن رغبةٍ فيه واقتناع.

وقد أورد الونشريسي مسألة مهمة في هذا المجال، تُظهر أنَّ صبيَّاً يهودياً أسلم وهو ابن ثمان سنين "وسئل ابن زرب عن يهوديٍ صبي أسلم، وهو ابن ثمانية أعوام، هل يحال بينه وبين أمه التي تحضنه ؟"[3].

لقد كان المسلمون في الأندلس دعاةً إلى دينهم بخلقهم وسلوكهم والتزامهم بمبادئ دينهم وبترغيبهم غير المسلمين في الدخول فيه. "وذكر ابن سهل في هذا المقام قضية طريفة: فيمن قال لامرأة نصرانية أسلمي وأعطيكِ داري هذه، لدارٍ هو فيها ساكن، فأسلمت ثمَّ مات الزوج قبل أن تقبضها المرأة، قال القاضي: الدار لها والإشهاد يجزيها من الحيازة، لأنها ثمن إسلامها، وليس من بابِ العطيّة"[4].

والظاهر أنَّ ظاهرة دخول يهود في الإسلام قد أزعجت يهود الأندلس، فقاوموها وكانت إحدى وسائل المقاومة في ما يبدو إغراء الداخلين منهم في الإسلام بالعودة إلى اليهودية مقابل تنصيبهم في مناصب الطائفة الإدارية المهمة. يفهم ذلك من الخطاب الذي كتبه أبو محمد عبد الغفور بن ذي الوزارتين، وهو إشبيلي من أهل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي-إلى أحد الأمراء، وأرسله إليه مع طبيب يهودي حيث يقول فيه: "وحمَّلتهُ المتطبب أبا فلان، كريمة رهطه، النابه الذكر في أعلام سِبطه، زعيم يهود، المسوَّد فيهم المسَوُد، بحكم التوقُّف عن المِلَّةِ الحنيفيَّة، والتردد في المذاهب الأحبارية"[5].

نشأت بين مسلمي ويهود الأندلس علاقات مختلفة منها الحسن ومنها دون ذلك.

أما العلاقات الحسنة فتعبِّر عنها النصوص والروايات الآتية: -

1- وقعت في قرطبة[6] سنة(202هـ=817م) في عهد الأمير الحكم[7] حادثة ينقلها عبد الواحد المراكشي عن ابن حيان فيقول: "ومن أَعجبِ ما حكى أبو مروان بن حيَّان المؤرِّخ مما يتَّصل بخبرِ هذه الوقعة قال: كان أشدِّ الناسِ على الحكم هذا تحريضا ً رجلٌ من الفقهاء اسمه طالوت، كان جليل القَدْرِ في الفقهاء، رحل إلى المدينة، وسمع من مالك بن أنس، وتفقَّه على أصحابه، وكان قوّيا ً في دينه، فلما أوقع الحكم بأهل الربض، وأمر بتغريبِ من بقي منهم، كان مِمَّن أمر

---

(1) عبد الرحمن بدوي، رسائل جديدة لابن باجة "مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد"، م15، (مدريد، 1970م)، ص9.
(2) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ق2، ص34، ترجمة رقم: 1186.
(3) الونشريسي، المعيار المعرب، جـ2، ص354.
(4) خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ص406.
(5) الشنتريني، الذخيرة، ق2، م1، ص364.
(6) تنظر هذه الحادثة عند: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص75-77؛ عياض، ترتيب المدارك، جـ2، ص505-507؛ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الرابع، ص150-151؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب، 21-22؛ ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ص243-244؛ المقري، نفح الطيب، م2، ص639.
(7) ينظر: ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص42.

بتغريبه طالوت الفقيه، فعسر عليه الانتقال، ومفارقة الوطن، ورأى الاختفاء إلى أن تتغيَّرَ الأحوال، فاستخفى في دارِ رجلٍ يهودي سنة كاملة، واليهودي في كلِّ ذلك يُكرمه أبلغ الكرامة، ويعظِّمه أشدّ التعظيم، فلمَّا مضت السنة، طال على الفقيه الاختفاء، فاستدعى اليهودي، وشكره على إحسانه إليه، وقال له: قد عزَمتُ غدا ً على الخروج، وقصد دار فلان الكاتب، لأنَّه قرأ عليّ، ولي عليه حق التعليم، وقد بلغني أنَّ له جاها ً عند هذا الرجل، فعسى هو يشفعُ لي عنده فيؤمِّنني ويدعني في بلدي، فقال له اليهودي: ياмولاي لاتفعل، فما آمنهم عليك، وجعل يحلفُ له بكلِّ يمين يعتقده، أنه لو أقام عنده بقية عمره، ما أمَلَّهُ ذلك، ولا ثقل عليه، فأبى إلاَّ الخروج، فخلَّى بينه وبين ذلك، فخرج حتى أتى دار ذلك الكاتب بغلس، فاستأذن عليه فأذن له، فلما دخل عليه رحَّبَ به، وأدنى مجلسه، وسأله أين كان في هذه المدَّة ؟ فقصَّ عليه قصَّته مع اليهودي، ثم قال له اشفع لي عند هذا الرجل، حتى يؤمنني في نفسي، ويَمنّ عليَّ بتركي في بلدي فوعده بذلك، وركب من فوره، ودخل على الحكم"[1]. ويكمل ابن القوطية أحداث هذه الرواية، ويبين كيف عفى الحكم عن طالوت، وعفا عن اليهودي الذي آواه في بيته[2]، ويقول ابن عاصم الغرناطي في نهاية روايته لهذه الحادثة أن الحكم: "كتب لليهودي بالحرمة، ولعقبه من بعده"[3].

وتدلُّ هذه الرواية على قيام علاقاتٍ حسنة بين مسلمين ويهود في الأندلس، فلولا أنَّ طالوت كان على علاقة حسنة باليهودي، لما لجأ إلى بيته، ومكث فيه لمدة سنة، ولولا وجود علاقة حسنة لما خاطر اليهودي بنفسه وماله وأهله وولده، وأخفى طالوت في بيته، وعندما عزم على الخروج رجاه واستحلفه أن لا يخرج خوفا ً وحفاظا ً عليه.

2- قول ابن حزم الأندلسي: "ولقد كنتُ يوما ً بالمرية، قاعدا ً في دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي، وكان بصيراً بالفراسةِ، محسناً لها، وكُنَّا في لَمّة"[4].

3- قول ابن سعيد الأندلسي: "وخرجت مرَّة مع أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي إلى مرج الفضة بنهر إشبيلية، فتشاركنا في هذا الشعر:

غيري يميل إلى كلامِ اللاحي ويمدُّ راحته لغيرِ الراحِ[5]

وقول والد ابن سعيد الأندلسي لولده ابن سعيد: "حتى رضيتَ أن تكون زاملة ليهودي شاعر"[6].

4- قيام علاقة حسنة بين يوسف بن وقار الإسرائيلي الطليطلي ولسان الدين بن الخطيب. يدلُّ على هذه العلاقة الطريقة التي يخاطب بها اليهودي ابن الخطيب، وكذلك طريقة ابن الخطيب في الحديث عن ذلك اليهودي. حيث يقول: "وقد كنتُ طلبتُ شيئا ً من ذلك [أخبار ملوك قشتالة] من مظنّته، وهو الحكيم الشهير، طبيبُ دار قشتالة، وأستاذ علمائها، يوسف

---

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص21-22.

(2) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص75-76.

(3) ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، م1، ص244.

(4) ابن حزم الأندلسي، رسائل ابن حزم الأندلسي، جـ1، ص114.

(5) المقري، نفح الطيب، م2، ص307.

(6) ابن سعيد الأندلسي، اختصار القدح المعلّى، ص141.

بن وقَّار الإسرائيلي الطليطلي، لما وصل إلينا في غرضِ الرياسة عن سلطانه، فقيَّد لي في ذلك تقييدا ً، أنقلُ منه بلفظه، أو بمعناه ما أمكن، وأستدرك ما أغفل، إذ ليس بقادحٍ في الغرض. قال الحكيم: سألتَ أعزَّك الله، وأدام كرامتك أن أثبت لك ما تحقَّق عندي من التواريخ التي وقع فيها نسب ملك قشتالة"[1].

5- اعتماد بعض المسلمين على أشخاص يهودٍ في حمل رسائلهم إلى أصدقائهم. يظهر ذلك من رواية الشنـتريني التي تبيِّن وصول رسالة إلى الكاتب أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم من أحد أصدقائه عن طريق يهوديٍ أوصلها إليه[2]، حيث ردَّ أبو المغيرة على الرسالة بقوله: "وأبدأ بحديث اليهودي موصل كتابك"[3].

ومن رواية أخرى أشرنا إليها سابقا ً، يرد فيها نص رسالة بعث بها أبو محمد عبد الغفور بن ذي الوزارتـين أبي القاسم إلى أحد الأمراء، ويظهر هذا النص أنَّ حامل الرسالة كان يهوديا ً "وأنفذته من كتاب...حملته المتطبب أبا فلان كريمة رهطه، النابه الذكر في أعلام سِبْطه، زعيم يهود، المسوَّد فيهم المسود"[4].

6- ارتبط أبو المطرف بن الدَّباغ بعلاقة وثيقةٍ مع أبي الفضل حسداي بن يوسف، الذي كان يهوديا ً، ثم أعلن إسلامه[5].

7- كان الوزير ابن عمار (ت: 479هـ=1086م) على علاقة وثيقة أيضا ً بحسداي إذ كتب إليه من سجنه الذي أودعه إياه ابن عباد، يقول:

أدرك أخاكَ ولو بقافيةٍ — كالطلِّ يوقظ نائم الزهرِ
فلقد تقاذفت الركاب به — في غيرِ مَوْماةٍ ولا بَحْرِ[6]

ويقول أيضا ً:

دع ذا وصلنا غير مؤتمِرٍ — مستأثراً بالحمدِ والشكرِ
واكتب إلينا إنها ليدٌ — تمحو الذي كتبت يدُ الدهرِ[7]

8- يدلُّ تتلمذ عدد من اليهود على أيدي أساتذة مسلمين على وجود علاقات حسنة بين الأساتذة المسلمين والتلاميذ اليهود. ومن الإشارات الدالة على هذه التلمذة، قول الكاتب أحمد بن عبد الملك بن شهيد: "جلس إليَّ يوما ً يوسف بن إسحاق الإسرائيلي، وكان أفهم تلميذٍ مرَّ بي"[8].

---

(1) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص322.
(2) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص161.
(3) م.ن، ق1، م1، ص161.
(4) الشنتريني، الذخيرة، ق2، م1، ص364.
(5) الشنتريني، الذخيرة، ق3، م1، ص282-284؛ العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ق4، جـ2، ص353-354.
(6) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص128.
(7) م.ن، ص128.
(8) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص233-234.

وقول ابن سعيد عن إسحاق بن شمعون اليهودي القرطبي أنَّه: "أحد عجائب الزمان في الاقتدار على الألحان، وكان قد لازم ابن باجة "[1].وقول المقري عن إبراهيم بن سهل الإسرائيلي: "وقرأ على أبي عليّ الشلوبين، وابن الدباج وغيرهما"[2].

9- قيام بعض يهود الأندلس بإهداء جيرانهم المسلمين رغائف بمناسبة عيد يهودي يسمونه عيد الفطير فقد "سئل القاضي أبو عبد الله بن الأزرق عن اليهود يصنعون رغائف في عيدٍ لهم يسمونه عيد الفطير، ويهدونها لبعض جيرانهم من المسلمين فهل يجوز قبولها منهم وأكلها أم لا؟"[3]. وقد ورد في الإجابة على هذا السؤال القول "كثير من جهلة المسلمين يقبل ذلك منهم في عيد الفطيرة"[4].

10- استخلص جوايتاين من وثائق الجنيزة أنه "كانت الأموال والبضائع تودع طرف رجال الأعمال المسلمين الذين كانوا يسافرون مع القوافل أو بالسفن في الوقت الذي كان فيه معظم الربابنة المذكورين [إن لم يكن جميعهم] مسلمين، ونحن نجدُ في أوراق الجنيزة أدعية وتمنيات طيبة للتجار المسلمين، كذلك نجد أنَّ اليهود كانوا يزورون بيوت شركائهم في العمل من المسلمين، ويهنئونهم في أيام الأعياد"[5]. ويقول أيضا ً: "جاء في إحدى وثائق الجنيزة: إذا كانت هناك قافلة، وكان يسافر فيها مسلمون مؤتمنون، تكرَّمْ بإرسالِ البضائع معهم"[6].

11- ورد في إحدى وثائق الجنيزة، نص رسالة بعث بها تاجر أندلسي في مدينة فاس إلى أبيه يافث اللافي بن علا في المرية سنة (535هـ=1140م) وجاء في هذه الرسالة القول: "ولو أنني كنتُ أمتلك من الشجاعة هنا ما أمتلكه في المرية لنجوتُ بأقل من هذا"[7]، وهو يقارن وضع اليهود في المرية بوضعهم خارج الأندلس، فيقول: " إلى درجة أنه بالمقارنة فإن المرية تعد مكان الخلاص"[8].

ولا شك أن معرفة يهود الأندلس بالمسلمين هناك، واختلاطهم بهم، ونشوء علاقات حسنة بينهم، هي التي جعلت هذا التاجر الأندلسي يمتلك الشجاعة في المرَّية.

12- يتحدّث صاعد الأندلسي عن علاقته باليهودي إسحاق بن قسطار فيقول: "جالسته كثيرا ً فما رأيتُ يهوديا ً مثله في رجاحته وصدقه وكمال مروءته"[9].

13- إنَّ المعاملة الحسنة التي عامل بها كثيرٌ من مسلمي الأندلس اليهود، لا تعني أنَّ هؤلاء المسلمين قد غيروا نظرتهم إلى اليهود.فلقد أحسنوا معاملتهم، وأقاموا معهم العلاقات مع بقاء صورة اليهودي كما هي في أذهانهم. وقد

---

(1) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص127، ترجمة رقم: 60.

(2) المقري، نفح الطيب، م3.

(3) الونشريسي، المعيار المعرب، جـ11، ص111-112.

(4) م.ن، جـ11، ص111-112.

(5) جوايتاين، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص238.

(6) م.ن، ص218.

(7) GOITEIN, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, P.53.

(8) IBID, P.55.

(9) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص89.

وجدنا ذلك عند ابن حزم الذي أقام علاقة حسنة مع إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي[1] بالرغم من تصريحاته الواضحة عن سوء أخلاق اليهودِ وطبائعهم وفساد عقائدهم[2]، ووجدناه عند ابن الخطيب الذي كانت له علاقة حسنة مع يوسف بن وقار الإسرائيلي الطليطلي[3]، مع أنَّه يقول في موضعٍ آخر، وهو يتحدَّث عن كفرِ إحدى الفرق: "ممن يأنف يهود لعنة الله على كفارها، من انتسابهم إلى نحلتها"[4].

وسبب إحسان المسلمين معاملة الذميين اليهود في الأندلس، بالرَّغم من الصورة السيئة التي يحملونها عنهم، هو أنَّ العقلية الإسلامية، قد تكوَّنت وتشكلت على أساس المنهج الإسلامي الذي يعرِّف المسلمين بصفات وأخلاق وطبائع اليهود، ليحذروهم، وفي الوقتِ نفسه يأمرهم بالعدل والقسط في معاملتهم ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [5] و﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [6]. وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي لا ينطق عن الهوى، أنْ يرافق القسط وعدم الظلم في معاملة اليهود، إهانة وعدم إكرام، حيث قال: "أذلوهم ولا تظلموهم، وأهينوهم ولا تكرموهم، وسموهم ولا تكنوهم"[7].

كما أوصى بذلك العمرين المشهورين بالعدل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزُّهم إذ أذلّهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله"[8]، وقال: "سموهم ولا تكنوهم، وأذلوهم ولا تظلموهم، وإذا جمعتكم وإياهم طريق فألجئوهم إلى أضيقها"[9]، وقوله لأحد عماله الذي بعث إليه يستأذنه في الاستعانة بالأعاجم: "إنهم أعداء الله، وإنهم لغششة، فأنزلوهم حيث أنزلهم الله"[10]. ولم تمنع هذه التوصيات الكثيرة عمر رضي الله عنه أن يمسك شيخا ً يهوديا ً كفيفا ً من يده، ويعطيه من بيت مال المسلمين، ويوصي برفع الجزية عنه وعن أمثاله من اليهود، وفرض مخصصاتٍ مالية لهم[11]. وقول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في كتابٍ إلى عماله: "وأنزلوهم منزلتهم التي خصَّهم الله بها من الذلِّ والصغار"[12].ولم تمنع هذه التوصية عمر رضي الله عنه أنْ يوصي أيضا ً أحد ولاته

---

(1) رسائل ابن حزم الأندلسي، جـ1، ص114.
(2) الرد على ابن النغريلي، ص45-46، 64-65.
(3) أعمال الأعلام، ص322.
(4) نفاضة الجراب، ص307.
(5) سورة المائدة، من الآية 8.
(6) سورة الممتحنة، آية 8.
(7) الونشريسي، المعيار، جـ2، ص254.
(8) الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح، المستطرف في كل فن مستظرف، (القاهرة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، 1368م)، جـ1، ص111.
(9) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، جـ1، تهذيب وترتيب: عبد القادر بدران، (بيروت، دار المسيرة، د.ت)، ص180.
(10) الأبشيهي، المستطرف، جـ1، ص111.
(11) أبو يوسف، الخراج، ص144.
(12) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ق1، ص212-213.

بقوله: "ثم انظر من قِبَلَكَ من أهل الذمة، قد كبرت سِنّه، وضعفت قوته، وولَّت عنه المكاسب، فأجرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه[1].

فلا تناقض إذًا ً في منهج الإسلام بين الإحسان إليهم والقسط معهم، وإهانتهم وإذلالهم. لأن الله تعالى مشرّع هذا المنهج، يعلم المعاملة التي تلائمهم وتناسب أخلاقهم وطبائعهم. وقد مرَّ بنا سابقاً كيف أدَّى إكرامهم وتقريبهم وتسليمهم المناصب في إمارة غرناطة في عهد الطوائف الذي كثر فيه انحراف الحكام عن منهج الإسلام، إلى تسلُّطهم على المسلمين واستهزائهم بآياتِ القرآن الكريم.

وقد التزم بعض المسلمين في الأندلس بمنهج الإسلام في التعامل مع اليهود، بينما تجاوزه آخرون. وقد نقل المقري عن ابن سعيد نصًّا ً يظهر التزام أحدُ المسلمين بمنهج الإسلام في التعامل معهم حيث قال في معرض حديثه عن إبراهيم بن الفخار اليهودي: "قال ابن سعيد: أنشدني لنفسه يخاطب أديبا ً مسلما ً كان يعرفه، قبل أن تعلو رتبته، ويُسفّر بين الملوك، ولم يزده على ما كان يعامله به من الإذلال، فضاق ذرعُ ابن الفخار، وكتب إليه:

أيا جاعلا ً أمرين شبهين ماله	**من الفعل إحساسٌ به يتفقّدُ**
جعلتَ الغنى والفقر والذلّ والعُلا	**سواء فما تنفكُّ تشقى وتجهدُ**
وهل يستوي في الأرضِ نجدٌ وقلعة	**فتطلب تسهيلا ً وسيرك مُصْعدُ**
وما كنت ذا مَيْزٍ لمن كنتَ طالباً	**بما كنتَ في حالِ الفراغِ تعوَّدُ**
وقد حالَ ما بيني وبينك شاغلٌ	**فلا تطلبني بالذي كنتَ تعهدُ[2]**

وظهر التعبير عن رغبة المسلمين في الالتزام بمنهج الإسلام في التعامل مع

اليهود، في سؤالٍ ورد إلى القابسي[3] حول هذا الموضوع، وفي إجابة القابسي عليه حيث يقول الونشريسي: "وسئل القابسي عن رجلٍ بجواره يهودي، قد رَبيَ معهم، فربما جاءوه في حاجة، أو عرضت له إليهم حاجة، وربما مشى في طريقٍ ملاصقة لهم، فيجري بينهم حديث أو ابتسام، وكلامٌ لين، وهذا الرجل يقول: الله عالم ببغضي لليهود، ولكن طبعي لين. أتراه من هذا في حرجٍ أم لا؟ وما يردُّ عليه أفتنا رحمك الله. فأجاب: إن كنتَ تسألُ لنفسك، فلا تخالط من على خلاف دينك فهو أسلم لك. وأما جارك من أهل الذمَّة، فيستقضيك حاجة لا مأثم فيها، فتقضيها له فلا بأس. أمَّا لين قولك له إن خاطبك فإن لم يكن فيه تعظيم له ولا تشريف، ولا ما يغبّطه في دينه، فلا بأس إذا ابتليتَ به، وأمَّا إن سلَّم عليك، فالردُّ

---

(1) م.ن، ق1، ص38.

(2) المقري، نفح الطيب، م3، ص527.

(3) القابسي: هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي، ولد سنة (324هـ=935م)،وهو من الفقهاء الزهاد الورعين. له تصانيف بديعة. توفي سنة(403هـ=1012م).

ينظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، طبقات الحفاظ (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1983م)، ص419.

عليه أن تقول: وعليك، ولا تزد. وأما سؤالك عن حاله وحال من عنده، فما لك فيه فائدة، وما عليك منه، إنْ أنت لم تكثر، ولم تُفرِط فيه، ولكن بقدر ما يدعو إليه حق الجوار والله يعلم المفسد من المصلح، والله وليٌّ بالتوفيق"[1].

أما بالنسبة لتجاوزات بعض المسلمين عن منهج الإسلام في التعامل مع اليهود، فتصورها العديد من الأمثلة التاريخية[2]، نذكر منها قول أبي الحسن بن الزقاق أحد كتاب مملكة بلنسية في غلامٍ يهودي كان يجلس معه وينادمه يوم سبت:

وحبب يوم السبت عندي أنني ينادمني فيه الذي أنا أحببتُ
ومن أعجب الأشياء أني مسلم حنيفٌ ولكن خير أيامي السبتُ[3]

وقول أبي أحمد عبد العزيز بن خيرة في مدح إسماعيل بن نغدله:

وما اكتحلت عيني بمثل ابن يوسف ولست أحاشي الشمس من ذا ولا البدرا[4]

وقوله فيه أيضا ً:

ولو فرقوا بين الضلالة والهدى لما قبلوا إلا أناملك العشرا
ولا ستلموا كفيك كالركن زلفة فيمناك لليمنى ويسراك لليسرى
وقد فزت بالدنيا ونلتُ بك المنى وأطمح أن ألقي بك الفوز بالأخرى
أدين بدين السبت جهرا ً لديكمُ وإن كنت في قومي أدين به سراً
وقد كان موسى خائفا ً مترقبا ً فقيرا ً وأمِّنت المخافة والفقرا[5]

والملاحظ أنّ المسلمين الذين ارتبطوا بهذا النوع من العلاقات مع اليهود كانوا أهل خمر ومجانةٍ وفسق، فابن الزقاق سالف الذكر يتحدث عن صحبة خمر ومجون مع غلامه اليهودي[6]؛ وابن خيرة له أقوال وأشعار تدل على إدمانه للخمر، ومن ذلك استحلافه أحد أصدقائه بالقول: "فبحرمة الكأس التي رضعنا"[7]، وقوله متغنياً بحب الخمر:

فإذا ما الكؤوس دارت بريقي فاح في الأفق منّي مسكٌ عتيقُ[8]

---

(1) الونشريسي، المعيار، جـ11، ص300-301.
(2) ينظر: الشنتريني، الذخيرة، ق4، م1، ص253-254؛ ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص288، ترجمة رقم: 206؛ المقري، نفح الطيب، م3، ص529.
(3) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص328، ترجمة رقم: 567؛ المقري، نفح الطيب، م4، ص19.
(4) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص764.
(5) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص765.
(6) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص328، ترجمة رقم: 567؛؛ المقري، نفح الطيب، م4، ص19.
(7) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص755.
(8) م.ن، ق1، م2، ص760.

ولم يرض الشنتريني عن هذا النوع من العلاقات مع اليهود، فعقب على أبيات ابن خيرة بالقول: "وله في هذه القصيدة من الغلو في القول، ما نبرأ منه إلى ذي القوة والحول[1]"؛ ولم يرض مسلمو الأندلس عن الأخفش بن ميمون الذي سلك سلوك ابن خيرة، فقال بعضهم محرضا ً المعتصم ابن صادح عليه: يا سيدي لا تُقَرِّب هذا اللعين فإنه قال في اليهودي:

ولكن عندي للوفاء شريعة تركت بها الإسلام يبكي على الكفر[2].

وصدق الله العظيم الذي نفى الإيمان عن الذين يحبون أعداءه، حيث يقول سبحانه: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...﴾ [3]، ونهى عن موالاتهم بقوله: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [4]. وعدَّ الذين يخالفون أوامره ويوالون اليهود أصحاب نفوس مريضة، ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم...﴾ [5].

ومن الأمثلة على هذه العلاقات الشاذة أيضا ً، العلاقة التي وقع فيها سعيد بن سليمان بن جودي "أمير العرب المنتزين بمدينة غرناطة من كورة إلبيرة"[6] مع امرأة يهودية، حيث يشير ابن عذاري إليها بقوله: "وقُتل في دار عشيقة له يهودية غدرا ً"[7]، وكان قتله سنة (284هـ=897م)[8]؛ وهذه العلاقة تدلُّ على وجود علاقات لمسلمين مع يهوديات منذ مرحلة مبكرة، وهي علاقات شاذة ونادرة، لم يقع فيها إلا ذوو الأهواء والشهوات، ولم يرض عنها جمهور المسلمين في الأندلس؛ والظاهر أنّ هذه العلاقات المنحرفة لابن جودي مع امرأة يهودية، كانت من أهم أسباب قتل أصحابه له، ولذلك اختاروا أن يقتلوه في بيتها. يقول ابن حيان: "وانبسط كثيرا ً على أصحابه، واستخفَّ بهم حتى دبَّر عليه كبيران منهم محمد بن عثمان بن سيد أبيه، ويزيد بن عبد السلام حيلة فقتلاه بها... وكان من أكبر ما نقمه عليه أصحابه استهتاره بالنساء، ونهمه فيهنّ، وانحطاطه في طلبهنّ، إلى ما يقُبِّحُ ذكره"[9].

---

[1] م.ن، ق1، م2، ص765.
[2] المقري، نفح الطيب، م3، ص387-388.
[3] سورة المجادلة، آية 22.
[4] سورة المائدة، آية 51.
[5] سورة المائدة، من الآية 52.
[6] ابن حيان، المقتبس، نشر الأب ملشور م. أنطونية، ص123.
[7] البيان المغرب، جـ2، ص134.
[8] ابن حيان، المقتبس، نشر الأب ملشور م. أنطونية، ص30.
[9] م.ن، ص30.

ولم يمنع أصحابه من قتله بسبب هذا الانحراف أنه كان زعيما ً عربيا ً يتصدى بجدارة واقتدار لعمر بن حفصون كبير الخارجين على الدولة[1]، "وأنه كان شجاعا ً بطلا ً وفارسا ً مجرِّبا ً، قد تصرَّف مع فروسيته في فنون العلم، وتحقق بضروب الأدب، فاغتدا أديبا ً وشاعرا ً محسنا ً[2].

كما وقعت خلافات ومنازعات بين مسلمين ويهود في المجتمع الأندلسي بعضها يتعلَّق بنواحي دينية، حيث كان بعض اليهود، يتعمدون في إيذاء مشاعر المسلمين الدينية، فيسبون شريعتهم[3]، أو يستهزئون بقرآنهم[4]، أو يذكرون نبيهم محمدا ً-صلى الله عليه وسلم- بسوء[5]، فلا يحتمل المسلمون ذلك، ويردون على هذه الإساءات والتجاوزات ردودا ً عنيفة في بعض الأحيان[6].

وبعض هذه الخلافات يرجع إلى منافسات شخصية، ويقدم المقري مثالاً على ذلك فيقول: "كان في زمان إلياس بن المدَوَّر[7] اليهودي الطبيب الرندي طبيب آخر. كان يجري بينهما من المحاسدة ما يجري بين مشتركين في صنعة. فأصلح الناس بينهما مراراً. وظهر لإلياس من ذلك الرجل الطبيِّب ما ينفِّر الناس منه، فكتب إليه:

لا تخدعنَّ فما تكون مودة — ما بين مشتركين أمراً واحداً
انظر إلى القمرين حين تشاركا — بسناهما كان التلاقي واحداً

يعني أنهما معا ً لمّا اشتركا في الضياء، وجب التحاسد بينهما والتفرقة، هذا يطلع ليلا ً، وهذا يطلع نهارا ً، واعتراضهما يوجب الكسوف[8].

وعندما لمع اسم الطبيب اليهودي إبراهيم بن الثرثار الذي عمل لدى السلطان محمد الخامس في غرناطة، أثارت شهرته حسد الطبيب الغرناطي محمد اللحمي الشقوري، فوضع كتاباً بعنوان "قمع اليهود عن تعدي الحدود"[9].

---

(1) م.ن، ص30.
(2) م.ن، ص30؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص134.
(3) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص418؛ الونشريسي، المعيار، جـ2، ص344، 363-364.
(4) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص114، ترجمة رقم: 426؛ ابن حزم الأندلسي، الرد على ابن النغريلة اليهودي، ص47.
(5) الضبي، بغية الملتمس، ص345-346.
(6) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص231؛ لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص233.
(7) ترجم له ابن سعيد الأندلسي، وذكر أن اسمه إلياس بن صدّود اليهودي. ينظر: ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص336.
(8) نفح الطيب، م3، ص528-529.
ذكر ابن سعيد الأندلسي، هذين البيتين، لكنه جعل عجز البيت الثاني كلمة "فاسدا" بدلا ً على "واحدا "، وهو الأصح في رأي، لأن كلمة "واحدا" كانت عجزا ً للبيت الأول، وتكرارها في بيتين متتاليين يُعَدّ ضعفا ً لغويا ً وأدبيا ً.
ينظر: ابن سعيد الأندلسي، جـ1، ص336.
(9) ابن الخطيب، الإحاطة، م2، ص42.

وقد حرص المسلمون في الأندلس على أن يحافظوا على هيبتهم وعزّتهم، وألا يشمتوا فيهم اليهود، يظهر ذلك من رواية لابن القوطية يقول فيها: "وذلك أنّ رجلا ً يعرف بالقصبي كانت له وجهة، وكان يوفده عبد الرحمن بن الحكم إلى "قارله" ملك الإفرنجة، وإلى ملك الروم، فتوفي عن ثلاثة آلاف دينار فضة، وترك أيتاما ً، ووجب على القاضي تثقيف المال وتحصينه، فلما جُلب إليه، وصار بين يديه، ذهب المال، فاتهم به ابنه المكنى بأبي عمرو، واتهم به كاتبه... فلما بلغ محمد الخبر أعظمه، وأساءه ما نزل في الأيتام في مالهم، لمكان أبيهم منه ومن أبيه قبله، فجمع أهل العلم وشاورهم فيه، فأشار جميعهم باستحلاف القاضي، حاشى بقيّ بن مخلد، فإنه قال: إنّ من الشماتِ بنا عند اليهود والنصارى أن نتسحلف قاضينا، والمأمون على فروج نسائنا وأحسابنا وأيتامنا، أرى للأمير أصلحه الله، أن يجبر هذا من بيت المال، فصار إلى رأيه، وأمر بعزله"[1].

وهناك خلافات ومنازعات عادية على أملاكٍ وعقاراتٍ ناتجة عن علاقات ومعاملات كانت تحدث بين مسلمي ويهود الأندلس في مختلف العصور[2]، وكانت هذه النزاعات تردّ إلى القضاء الإسلامي فيحكم فيها بالعدل والإنصاف[3].

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص92-93.
(2) ابن سهل، الأحكام الكبرى، ص65-66؛ الشنتريني، الذخيرة، ق4، م1، ص253-254؛ الونشريسي، المعيار، جـ2، ص227-228.
(3) ابن سهل، الأحكام الكبرى، ص47-56، 65-66، 73.